لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب التوهم

للحارث بن أسد المحاسبي

عني بنشره

الدكتور ا . ج . آربري

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٧

مقدمة

صديقى الأستاذ آرثر أربرى مولع أشد الولع بكتب التصوف الإسلامى ، عرفته مذ كان مدرساً فى كلية الآداب بالجامعة المصرية يبذل أكثر أوقاته فى المكاتب باحثاً منقباً متفهماً ، حتى إذا عثر على كتاب له قيمة فى التصوف — وخاصة كتب العصور الأولى — نسخه بخطه الجميل بكل عناية ودقة ، وعارضه بالأصول المختلفة من الكتاب ، أو بعبارات وردت منه فى كتب أخرى ، ووقف عند الغامض منها ، باحثا سائلا مفكرا حتى يهتدى إلى الصواب فيها .

وكان أهم ما عنى به وهو فى مصر كتاب « المواقف والمخاطبات » للنفرى ، وهو كتاب عظيم القدر فى التصوف ، عالى الأسلوب فى الأدب ، كان مصدرا يستقى منه كثير من كبار المتصوفة بعده ؛ ومع صعوبة فهمه وبعد إشارته حتى على من بلغ مبلغا عظيما فى العربية وعلومها ، فقد استطاع « آربرى » أن يكافح صعوباته بالصبر والجلد حتى يتغلب على الكثير منها ، ثم هو يترجمه إلى اللغة الإنجليزية فى لغة سلسة ربما كانت أوضح من الأصل فى بعض المواضع .

فلما عاد إلى انجلترا واصل عمله ، فهو من حين إلى حين ينشر كتابا أو رسالة يرى فيها خيرا فى تفهم أصول الصوفية وتطور تعاليمهم . وأخيرا نشر هذا الكتاب وهو كتاب « التوهم » لأبى عبد الله

الحارث المحاسبي ، وهو إمام من أكبر أئمة المتصوفة وأستاذ أكثر البغداديين ، مات ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وقد ألف تآليف كثيرة انتفع بها من كتب في التصوف بعده ، ومنهم الغزالي وقد قال عنه في الإحياء : « المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » ، وقد كان يجمع بين علم الحقيقة والشريعة « ومن جمع بينهما كلم الناس بقدر ما تقتضيه أحوالهم » ولهذا وثق به الفقهاء كما وثق به الصوفية .

وكتابه « التوهم » كتاب طريف في بابه قد بني على أساس في الدين والتصوف معروف ، وهو « الخوف والرجاء » أو « الترغيب والترهيب » وقد نوه بهذا الأساس القرآن الكريم ، فقد خوف حتى أرعب . فقال تعالى : « إن بطش ربك لشديد » وأمّل حتى طمأن فقال : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » ، وكان من قبيل الترهيب ما ورد فيه من وصف النار وعذابها وفظائعها . ومن قبيل الترغيب ما ورد فيه من وصف الجنة ونعيمها وهنائها . وكذلك الحديث كان فيه النوعان ، وتعادلت فيه الكفتان . ففي الصحيحين عن أنس قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط . فقال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ولهم خنين[1]

(١) الخنين بكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف .

كما جاء في الصحيحين أيضا من باب الترغيب أن رسول الله قال : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل .

ونهج المسلمون هذا النهج من وعاظ وقصاص ومتصوفة ، فكان مما كتبه على هذا الأساس المحاسبي في كتابه « التوهم »

غير أنه نحا فيه منحى طريفا يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ؛ وبعبارة أخرى خياله ، في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من سعادة وشقاء ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القياد فتخيل ما تخيل ، وصور ما صور ، فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، أو رواية رائعة لكاتب جمّل مناظرها ، وفصّل مواقفها ، وصقل لغتها حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئين والسامعين أكبر الأثر وأبلغه .

فلصديقي « أربرى » الشكر على ما يبذل من جهد موفق في نشر كتب التصوف والعناية بها ، والله يجزيه من جنس عمله سعادة روحية هي خير ما ينعم به المتصوف الصادق ؟

٢١ نوفمبر سنة ١٩٣٧ — **أحمد أمين**

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

الحمد لله الواحد القهار ، العظيم الجبّار ، الكبير المتعال ، الذى جعلنا للبلوى(٢) والاختبار ، وأعدّ لنا الجنّة والنار ، فعظم لذلك الخطر ، وطال لذلك الحزن لمن عقل وادّكر ، حتى يعلم أين المصير وأين المستقرّ ، لأنه قد عصى الربّ وخالف المولى ، وأصبح وأمسى بين الغضب والرضا ، لا يدرى أيّهما قد حلّ ووقع له ، فعظم لذلك غمه وطال لذلك حزنه ، واشتدّ كربه حتى يعلم كيف عند الله حاله ، فإلى الله فأرغبْ فى التوفيق ، وإياه فسل العفو عن الذنوب ، وبه فاستعن فى كلّ الأمور . فعجبتُ كيف تقرّ عينك أو كيف يزايل الوجلُ والإشفاق قلبَك ، وقد عصيت ربّك واستوجبت بعصيانك غضبه وعقابه ، والموتُ لا محالة نازلٌ بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته ، فكأنّك قد نزل بك وشيكاً سريعاً .

فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعةً لا تقوم منها إلا إلى الحشر إلى ربّك ، فتوهم نفسك فى نزع الموت وكربه وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملَك يجذب روحك من قدمك

(١) كتاب التوهم للحرث بن أسد المحاسبى رحمه الله زائد فى الأصل .
(٢) للبلوا .

فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ، ثمّ تدارك الجذب واستحثّ النزع وجُذبت الروح من جميع بدنك ، فنشطتْ من أسفلك متصاعدة إلى أعلاك حتى إذا بلغ منك الكرب منتهاه وعمّت آلام[1] الموت جميع جسمك ، وقلبُك وجلٌ محزون مرتقب منتظر للبشرى[2] من الله عزّ وجلّ بالغضب أو الرضا ، وقد علمتَ أنّه لا محيصَ لك دون أن تسمع إحدى البشريين من الملك الموكَّل بقبض روحك ، فبينا أنت فى كربك وغمومك وألم الموت بسكراته وشدّة حزنك لارتقابك إحدى البشريين من ربّك ، إذ نظرتَ إلى صفحة وجه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرتَ إليه مادًّا يدَه إلى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلّتْ نفسك لمّا عاينتَ ذلك وعاينت وجه ملك الموت ، وتعلّقَ قلبُك بماذا يفجأك من البشرى منه إذا سمعت صوته بنغمته أبشرْ يا ولى الله برضا الله وثوابه أو أبشرْ يا عدوّ الله بغضبه وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقرّ الأمر فى قلبك فتطمئنّ إلى[3] الله نفسُك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحلّ الإياس قلبَك وينقطع من الله عزّ وجلّ رجاؤك وأملُك ، فيلزم حينئذ غاية الهمّ والحزن أو الفرح والسرور قلبَك حين أنقضتْ من الدنيا مدّتُك (*) وانقطع منها أثرك وحُملتَ إلى دار مَن سلف مِن الأمم قبلك .

فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً وسروراً ، أو ملئ حزناً

(١) فى الهامش . (٢) للبشرا . (٣) ناقص فى الأصل .

وعبرةً ، وبفترة القبر وهول مطلعه وروعة الملكين وسؤالهما فيه عن إيمانك بربّك ، فمثبّت من الله جلّ ثناؤه بالقول الثابت أو متحيّر شاكّ مخذول . فتوهم أصواتهما حين يناديانك لتجلس لسؤالهما إياك ليوقفاك على مسائلتهما ؛ فتوهم جلستك فى ضيق لحدك ، وقد سقطت أكفانك على حقوَيك والقطنة من عينيك عند قدميك . فتوهم ذلك ثمّ شخوصك ببصرك إلى صورتهما وعظم أجسامهما ، فإن رأيتهما بحسن الصورة أيقن قلبك بالفوز والنجاة ، وإن رأيتهما بقبح الصورة أيقن قلبك بالهلاك والعطب ؛ فتوهم أصواتهما وكلامهما بنغماتهما وسؤالهما ، ثم هو تثبيت الله إياك إن ثبّتك أو تحييره[1] إن خذلك .

فتوهم جوابك باليقين أو بالتحيّر أو بالتلديد والشكّ ، وتوهم إقبالهما عليك إن ثبّتك الله عز وجل بالسرور وضربهما بأرجلهما جوانب قبرك بانفراج القبر عن النار بضعفك . ثمّ توهم وهى تتأجّج بحريقها ، وإقبالهما عليك بالقول ، وأنت تنظر إلى ما صرف الله عنك فيزداد لذلك قلبك سروراً وفرحاً وتوقن بسلامتك من النار بضعفك . ثم توهم ضربهما بأرجلهما جوانب قبرك[2] وانفراجه عن الجنة بزينتها ونعيمها وقولهما لك : يا عبدالله انظر إلى ما أعدّ الله لك ؛ فهذا منزلك وهذا مصيرك .

فتوهم سرور قلبك وفرحك بما عاينت من نعيم الجنان وبهجة مُلكها وعلْمك أنّك صائر إلى ما عاينت من نعيمها وحسن بهجتها . وإن تكن

(١) تحيره . (٢) كذا فى الهامش وفى الأصل القبر .

الأخرى فتوهم خلاف ذلك كله من الانتهار لك ومن معاينتك الجنّة وقولهما لك(١) : انظر إلى ما حرمك الله عزّ وجلّ ، ومعاينتك النار وقولهما لك : انظر إلى ما أعدّ الله لك ؛ فهذا منزلك ومصيرك . فأعظِمْ بهذا خطراً ، وأعظم به عليك فى الدنيا غمًّا وحزناً حتى تعلم أى الحالتين فى القبر حالك ، ثم الفناء والبلاء بعد ذلك ، حتى تنقطع الأوصال فتفنى عظامُك ويبلى(٢) بدنك ولا يبلى حزن البشرى أو الفرح من روحك متوقّعٌ روحَك (؟) متطلّع للقيام عند النشور إلى غضب الله عز وجل وعقابه ، أو إلى رضا الله عزّ وجلّ وثوابه ، وأنت مع توقّع ذلك معروضةٌ روحُك على منزلك من الجنّة أو مأواك من النار ، فيا حسرات روحك و (١٥٣) غمومها ، ويا غبطتها وسرورها حتى إذا تكاملتْ عدّة الموتى وخلت من سكانها الأرض والسماء فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حسّ يسمَع ، ولا شخص يُرى(٣) وقد بقى الجبّار الأعلى(٤) كما لم يزل أزليًّا واحداً منفرداً بعظمته وجلاله ، ثم لم يُفْجأ روحك إلا بنداء المنادى لكلّ الخلائق معك للعرض على الله عزّ وجلّ بالذل والصغار منك ومنهم .

فتوهم كيف وقوع الصوت فى مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى(٥) إلى العرض على الملك الأعلى(٦) فطار فؤادك وشاب

(١) فى الهامش . (٢) ويبلا . (٣) يرى . (٤) الأعلا .
(٥) تدعا . (٦) الأعلا .

رأسك للنداء لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذى الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء . فبينا أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض عن رأسك ، فوثبت مغبّراً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك ، قائم على قدميك شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلّهم معك ثورةً واحدةً وهم مغبّرون(١) من غبار الأرض التى طال فيها بلاؤهم(٢) . فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ومذلّتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك فى زحمة الخلائق ، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلّة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادى ، والخلائق مقبلون نحوه وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ(٣) بالخشوع والذلّة ، حتى إذا وافيتَ الموقف ازدحمت الأمم كلها من الجنّ والإنس عراةً حفاة ، قد نُزع المُلْك من ملوك الأرض ولزمتْهم الذلّة والصغار ، فهم أذلّ أهل الجمع وأصغرهم خلقةً وقدراً بعد عتوّهم وتجبّرهم على عباد الله عزّ وجلّ فى أرضه . ثم أقبلت الوحوش من البرارى وذرى الجبال منكسة رؤوسها(٤) لذلّ يوم القيامة بعد توحّشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليّة نابتها ولا خطيّة أصابتها ؛ فتوهم إقبالها بذلّها فى اليوم العظيم ليوم العرض والنشور ، وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها(٤) ذليلة ليوم القيامة حتى وقفتْ

(١) مغبرين . (٢) بلاهم . (٣) ساعى . (٤) روسها .

من وراء الخلائق بالذلّ والمسكنة والانكسار للملك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتوّها وتمرّدها خاشعة لذلّ العرض على الله سبحانه ، فسبحان الذى جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحّش بعضهم من بعض قد أذلّهم البعث وجمع بينهم النشور . حتى إذا تكاملت عدّة أهل الأرض من إنسها وجنّها وشياطينها ووحوشها وسباعها (*) وأنعامها وهوامّها ، واستووا جميعاً فى موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها . فبينا أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم[١] ، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فياهول صوت انشقاقها فى سمعك ، ثم تمزّقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهى حافّات مايتشقّق ويتفطّر ، فما ظنّك بهول تنشقّ فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ، كما قال الجليل الكبير : فصارت وَرْدَةً كَالدِّهَانِ[٢] ، ويَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ[٣] (فقال المفسّرون إنّ المهل هى الفضّة المذابة يخالطها صفرة ، وإنّ العهن هو الصوف المنفوش ، وقوله وردة كالدهان كلون الفرس الورد) . فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافّتها إذ انحدروا

(١) روسهم . (٢) سورة ٥٥ ، ٣٧ (٣) سورة ٧٠ ، ٨ — ٩

محشورين إلى الأرض للعرض والحساب ، وانحدروا من حافّتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلوّ أصواتهم بتقديس المَلِك الأعلى الذى أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلّة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه .
فتوهم تحدّرهم[١] من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدّة فرقهم منكسين لذلّ العرض على الله عزّ وجلّ — كما حدّثنى يحيىٰ بن غيلان الأسامى قال ، حدّثنا رشدين بن سعيد عن أبى السمح عن أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلّم أنّه قال : لله مَلَكٌ ما بين مواقى عينيه إلى آخر[٢] شفره مسيرة مائة عام ؛ حدّثنى يحيى بن غيلان قال ، حدّثنا رشدين بن سعيد عن ابن عباس بن ميمون اللخمى عن أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لله عزّ وجلّ ملك ما بين شفرى عينيه مائة عام — فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافةَ أن يكونوا أُمروا بهم ، ومسئلتهم إيّاهم : أفيكم ربّنا ؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم تنزيهاً لما توهّمه أهل الأرض : سبحان ربّنا ليس هو بيننا فهو آتٍ ، حتى أخذوا مصافّهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم[٣] لذلّ يومهم .
فتوهّمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم[٣] (١٥٤) فى عظم خلقهم بالذلّ والمسكنة والخشوع لربّهم ، ثمّ كلّ شىء على ذلك

(١) يحذرهم . (٢) أحر . (٣) روسهم .

وكذلك إلى السماء السابعة كلّ أهل سماء مضعفين بالعدد ، وعظم الأجسام ، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفًّا واحدًا ، حتى إذا وافى[١] الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع كسيتِ الشمس حرَّ عشر سنين وادنيتْ من رؤوس[٢] الخلائق قاب قوس أو قوسين ، ولا ظلّ لأحد إلاّ ظلّ عرش ربّ العالمين ، فمِن بين مستظلّ بظلّ العرش ، وبين مضحو بحرّ الشمس ، قد صهرته بحرّها واشتدّ كربه وقلقه من[٣] وهجها ، ثمّ ازدحمت الأمم وتدافعت ، فدفع بعضها بعضًا وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثمّ على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عز وجلّ بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من قد[٤] كاد أن يغيب فى عرقه ومن قد توسّط العرق من دون ذلك منه — عن عمير بن سعيد قال : جلست إلى ابن عمر وأبى سعيد الخدرى ، وذلك يوم الجمعة فقال أحدهما لصاحبه : إنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : أين يبلغ العرق من ابن آدم يوم القيامة ؟ فقال أحدهم : شحمة أذنيه ، وقال الآخر : يلجمه ، فقال ابن عمر : هكذا وخطّ من فيه إلى شحمة أذنيه ، فقال : ما أرى ذلك إلاّ سواء . عن

(١) وافا . (٢) روس . (٣) فوق . (٤) فى الهامش .

خيثمة عن عبد الله قال : الأرض كلّها نار يوم القيامة ، والجنّة من ورائها يرون كواعبها وأكوابها ، والذى نفس عبد الله بيده إنّ الرجل ليفيض عرقًا حتى يسيح فى الأرض قامته ، ثمّ يرتفع حتى يبلغ أنفه ، وما مسّه الحساب ، قال فقالوا : مم ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال فقال : مما يرى الناس يلقون . عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إنّ الرجل (وقال على مرةً إنّ الكافر) ليقوم يوم القيامة فى بحر رشحه إلى أنصاف أذنيه من طول القيام . عن عبد الله رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلّم إنّ الكافر يلجم بعرقه يوم القيامة من طول ذلك اليوم ، (وقال على من طول القيام قالا جميعًا) حتى يقول ربِّ أرحْنى ولو إلى النار — وأنت لا محالة أحدهم ؛ فتوهم نفسك لكربك وقد علاك العرق وأطبق عليك الغمّ وضاقت نفسك فى صدرك من شدّة العرق والفزع والرعب ، والناس[١] معك منتظرون[٢] لفصل القضاء (*) إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه وطال وقوفهم لا يكلّمون ولا ينظرون[٣] فى أمورهم ، فما ظنك بوقوفهم ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلةً ولا يشربون فيه شربةً ولا يلفح وجوههم روحٌ ولا طيب نسيم ، ولا يستريحون من تعب قيامهم ونصب وقوفهم حتى بلغ الجهد منهم ما لا طاقة لهم به — عن قتادة أو كعب ، قال يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٤] قال : يقومون مقدار

(١) تحت . (٢) منتظر باليد الأولى . (٣) ينظروا . (٤) سورة ٨٣، ٦

ثلاثمائة عام ، قال سمعت الحسن يقول : ماظنّك بأقوام قاموا لله عزّ وجلّ على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلةً ولم يشربوا فيها شربةً حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار فسُقوا من عين آنيةٍ قد آن حرّها واشتدّ نفحها ، فلمّا بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلّم بعضهم بعضاً فى طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم فى الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنّة أو إلى[1] النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم ، كلّهم يقول لهم : إنّ ربّى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلّهم يذكر شدّة غضب ربه عزّ وجلّ وينادى بالشغل بنفسه فيقول : نفسى نفسى ، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربّهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها وكذلك يقول الله عزّ وجلّ : يَوْمَ[2] تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا[3] فلم يحاسّ (؟) من الخلائق أحدًا .

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ، فلا تسمع إلا قول نفسى نفسى . فيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربّك وعقابه ، فما ظنّك بيوم ينادى فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عزّ وجلّ

(١) فى الهامش . (٢) القيامة زائد باليد الأولى . (٣) سورة ١٦ ، ١١٢

وعظم قدر منازلهم عند الله عزّ وجلّ ، كل ينادى : نفسى نفسى ، شفقاً من شدّة غضب ربّه ، فأين أنت منهم فى إشفاقك فى ذلك اليوم واشتغالك بذلك[1] اليوم ، وبحزنك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا[2] من اشتغالهم لأنفسهم أتوا النبى محمّداً[3] صلى الله عليه وسلم فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها ، ثم قام إلى ربّه عزّ وجلّ واستأذن عليه فأذن له ثمّ خرّ لربّه عزّ وجلّ ساجداً ثمّ (١٥٥) فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كلّه بسمعك وأسماع الخلائق حتى أجابه ربّه عزّ وجلّ إلى تعجيل عرضهم ، والنظر فى أمورهم .

فبينما أنت مع الخلائق فى ظلم القيامة وشدّة كربها منتظر متوقع لفصل القضاء والحلول فى دار النعيم أو الحزن إذ سطع نور العرش وأشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن[4] قلبك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر إلا فى أمرك — عن حميد ابن هلال ، قال : ذكر لنا أن الرجل يُدعى[5] يوم القيامة إلى الحساب فيقال : يا فلان بن فلان هلّم إلى الحساب ، حتى يقول ما يراد أحد غيرى مما يحضر به من الحساب — ثم نادى : يا جبريل ائتنى بالنار ؛ فتوهمها وقد أتى[6] جبريل فقال لها : يا جهنم أجيبى ، فتوهم اضطرابها وارتعادها بفرقها أن يكون الله عز وجل خلق خلقاً يعذبها به ؛ فتوهمها حين

(١) فى الهامش . (٢) روا . (٣) فى الهامش .
(٤) ربك زائد باليد الأولى . (٥) يدعا . (٦) أتا .

اضطربت وفارت ونارت ، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها فشهقت إليهم وزفرت نحوهم وجذبت خزانها متوثبةً على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه ؛ فتوهم صوت زفيرها وشهيقها ، وترادف قصبتها ، وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعباً ، ففرّ الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وذلك يوم التنادى ، لما سمعوا بدو زفيرها ولّوا مدبرين وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم فأرسلوا الدموع من أعينهم .

فتوهم اجتماع أصوات بكاء الخلائق عند زفيرها وشهيقها وينادى الظالمون بالويل والثبور ، وينادى كل مصطفى وصدّيق ومنتخب وشهيد ومختار وجميع العوام : نفسى نفسى ، فتوهم أصوات الخلائق الأنبياء فمن دون كل عبد منهم ينادى : نفسى نفسى وأنت قائلها ؛ فبينا أنت مع الخلائق فى شدّة الأهوال ووجل القلوب إذ زفرت الثانية فيزداد رعبك ورعبهم وخوفك وخوفهم ، ثمّ زفرت الثالثة فتساقط الخلائق لوجوههم[1] وتنتخص بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفىّ خوفا أن تلفهم فتأخذهم بحريقها ، وانتصفت عند ذلك قلوب[2] الظالمين فبلغت لدى[3] الحناجر كاظمين فكظموا عليها وقد غصّت فى حلوقهم وطارت الألباب وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين فلا يبقى رسول ولا عبد صالح مختار إلاّ ذهل لذلك عقلُه فأقبل الله (*)

(١) لوجوهم . (٢) فى الهامش . (٣) لدا .

عزّ وجلّ عند ذلك على رسله وهم أكرم الخلائق عليه وأقربهم إليه لأنّهم الدعاة إلى الله عزّ وجلّ والحجّة على عباده ، وهم أقرب الخلائق إلى الله عزّ وجلّ فى الموقف وأكرمهم عليه ، فيسئلهم عمّا أرسلهم به إلى عباده وماذا ردّوا عليهم من الجواب فقال لهم : مَاذَا أُجِبْتُمْ ؟ فردّوا عليه الجواب عن عقول ذاهلة غير ذاكرة فقالُوا : لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[1] . فأعظِمْ به من هول تبالغ من رسل الله عزّ وجلّ فى قربهم منه وكرامتهم حتى أذهل عقولهم ، فلم يعلموا بماذا أجابتهم أممهم — عن أبى الحسن الدمشقى ، قال قلت لأبى قرّة الأزدى : كيف صبر قلوبهم على أهوال يوم القيامة ؟ قال : إنّهم إذا بُعثوا خُلقوا خلقةً يقوون عليها . قال أبو الحسن قلت لإسحٰق بن خلف قول الله عزّ وجلّ للرسل : مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ، أليس قد علموا ما رُدّ عليهم فى الدنيا ؟ قال : مِن عظم هول السؤال حين يسألون[2] طاشت عقولهم فلم يدروا أى شىء أُجيبوا فى الدنيا ، فهم صادقون حتى تجلّى[3] عنهم بعد ، فعرفوا ما أجيبوا ، قال : فحدّثت به أبا سليمٰن ، فقال : صدق إسحٰق هم فى ساعتهم تلك صادقون ، حتى تجلّى[4] عنهم فعرفوا ما أُجيبوا ، فقال أبو سليمٰن : إذا سمعتَ الرجل يقول لصاحبه بينى وبينك الصراط فاْعلم أنّه لا يعرف الصراط ولو عرفه ما اشتهى[5] أن يتعلق بأحد ،

(١) سورة ٥ ، ١٠٨ . (٢) يسئلوا . (٣) تحلا .
(٤) تجلا . (٥) اشتها .

فلا يتعلق أحد . عن مجاهد فى قوله : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ، قال فيفزعون فيقولون : لَا عِلْمَ لَنَا . عن مجاهـد فى قول الله عزّ وجلّ : وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً(١) أى مستوفزين على الركب ، قال سمعت عبد الله يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأنّى أراكم بالكوم جاثين دون جهنّم ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب أن ينظر إلىّ يوم القيامة فليقرأ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(٢) ؛ وعن عمرو بن ذرّ قال : من غدا يلتمس الخير وجد الخير ، أعلىّ تحملون جمود أعينكم وقسوة قلوبكم ؟ احملوا العىّ علىّ إن لم أسمعكم اليوم واعظاً من كتاب الله عز وجل ، ثمّ قرأ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) — حتى إذا بلغ — عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ(٤) (أو قال حتى ختمها) ، قال ثم قال : إسمعوا إلىّ ياعرَض الدنيا — فأين أنت منهم فى ذلك الموقف ؟ هل تطمع أن يبلغ بك الهول ما بلغ منهم ، بل أعظم مما بلغ منهم ما لا يطيقه قلبك فلا يقوم به بدنك (١٥٦) فهذه عقولهم ذاهلة فى ذلك الموقف ، فكيف بعقلك وما حل بك وأنت الخاطئ العاصى المتمادى فيما يكره ربّكَ عزّ وجل ؟

فتوهّم نفسك لذلك الخوف والفزع والرعب والغربة والتحيّر إذا

(١) سورة ٤٥ ، ٢٧ (٢) سورة ٨١ ، ١ (٣) سورة ٨١ ، ١ — ٣
(٤) سورة ٨١ ، ١٤

تبرّأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر ، وفررت أنت(١) منهم أجمعين ، فكيف خذلتهم وخذلوك ، ولولا عظم هول ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفرّ من أمّك وأبيك وصاحبتك وبنيك وأخيك ، ولكن عظمَ الخطر واشتدّ الهول فلا تُلام على فرارك منهم ولا يلامون(٢) ولم تخصّهم بالفرار دون الأقرباء لبغضك إيّاهُم ، وكيف تبغضهم(٣) أو يبغضونك ، وكيف خصصتهم بالفرار منهم ، أتبغضهم(٣) وإنّهم لهَم الذين كانوا فى الدنيا مؤانسيك وقرّة عينك وراحة قلبك ، ولكن خشيت أن يكون لأحد عندك منهم تبعةٌ فيتعلّق بك حتى يخاصمك عند ربك عزّ وجلّ ، ثم لعله أن يحكم له عليك فيأخذ منك ما ترجو(٤) أن تنجو به(٥) من حسناتك فيفرقك منها فتصير بذلك إلى النار . فبينما أنت فى ذلك إذ ارتفعت عُنُقٌ من النار فنطقت بلسان فصيح بمن وُكّلت بأخذهم من الخلائق بغير حساب ، ثم أقبل ذلك العُنُق فيلقطهم لقط الطير الحبّ ثم انطوت عليهم فألقتهم فى النار فابتلعتهم ، ثم خنست بهم فى جهنم فيُفْعَل ذلك بهم ، ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع مَن أولى بالكرم ليقمْ الحمّادون لله على كل حال ، فيقومون فيسرحون إلى الجنّة ثم يُفْعَل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم يشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر مولاه(٦) حتى إذا دخلت هذه

(١) فى الهامش . (٢) يلاموا . (٣ — ٣) فى الهامش .
(٤) ترجوا . (٥) تنجوا . (٦) راجع سورة ٢٤ ، ٣٧

الفرق من أهل الجنّة[١] والنار ، ثم تطايرت الكتب فى الإيمان والشمائل ونصبت الموازين ؛ فتوهَّم الميزان بعظمه منصوباً وتوهَّم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقّع أين يقع كتابك فى يمينك أو فى شمالك — عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه فى حجر عائشة فنعس ، فتذكرت الآخرة ، فبكت فسالت دموعها على خدّ النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستيقظ بدموعها فرفع رأسه ، فقال : ما يُبكيك يا عائشة ؟ فقالت : يا رسول الله ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : والذى نفسى بيده فى ثلاث مواطن فإنّ أحداً لا يذكر إلاّ نفسه : إذا وُضعت الموازين ووُزنت أعمال بنى آدم عند الموازين حتى ينظر أيخفّ ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه (*) يأخذ أم بشماله ، وعند الصراط . عن أنس بن مالك قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفّتى الميزان ويوكّل به مَلَكٌ فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوته بسمع الخلائق : سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى[٢] بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى[٣] الملك بصوته بسمع الخلائق : شقى فلان بن فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . فبينا أنت واقف مع الخلائق إذ نظرت إلى الملك وقد أُمِرَ أن يحضر بالزّبانيّة فأقبلوا بأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من النار ، فلمّا رأيتهم فهبتهم طار قلبك فزعًا ورعباً ؛ فبينا أنت كذلك إذ نودى باسمك

(١) فى الهامش . (٢) يشقا . (٣) نادا .

فنوديت على رؤوس[١] الخلائق الأوّلين والآخرين : أين فلان بن فلان ؟ هلم إلى[٢] العرض على الله عزّ وجلّ ، وقد وكّل الملائكة بأخذك حتى يقربوك[٣] إلى ربّك فلم يمنعها اشتباه الأسماء باسمك أن تعرفك لما ترى بك[٤] أنك المراد بالدعاء المطلوب — قال حدثنا طلحة بن عمرو قال ، قال لى عطاء بن أبى رباح : يا طلحة ما أكثر الأسماء على اسمك وما أكثر الأسماء على اسمى ؛ فإذا كان يوم القيامة قيل يا فلان فقام الذى يعنى لا يقوم غيره لما لزم قلبك من العلم — فوثبتَ على[٥] قدميك ترتعد فرائصك وتضطرب جوارحك متغيّر لونك فزع مرعوب مرتكض قلبك فى صدرك بالخفقان ، فلما عاينتك الملائكة الموكّلون بأخذك قد حلّ[٦] بك الاضطراب بالارتعاد[٧] والمخافة علمت أنك أنت[٨] المراد من العباد فأهوت إليك بأيديها فقبضت عليك بعنفها ثم جذبتك إلى ربك عزّ وجل كما تجذب الدوابّ المنقادة تتخطى[٩] بك الصفوف محثوثا إلى العرض على الله عزّ وجل والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم وأنت مجبوذ إلى ربك عزّ وجل فيما بينهم .

فتوهم حين وقفتَ بالاضطراب والارتعاد يرعد قلبك ، وتوهم مباشرة أيديهم على عضديك وغلظ أكفّهم حين أخذوك ؛ فتوهم

(١) روس . (٢) فى الهامش . (٣) يقربونك . (٤) يرابك .
(٥) كذا فى الهامش وفى الأصل بك لك . (٦) فوق . (٧) بالاردعاد .
(٨) فى الهامش . (٩) تتخطا .

نفسك محثوثة فى أيديهم وتوهم تخطيك الصفوف ، طائر فؤادك متخلع قلبك ، فتوهم نفسك فى أيديهم كذلك حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فقذفوا بك من أيديهم ، وناداك الله عزّ وجلّ بعظيم كلامه : أدن منّى يا ابن آدم ، فغيّبك فى نوره ، فوقفت بين يدى ربّ عظيم جليل كبير كريم بقلب خافق محزون ، وجل مرعوب ، وطرف خائف ، خاشع ذليل ، ولون متغيّر ، وجوارح مرتعدة مضطربة ، كالحمل الصغير حين تلده أمّه ، ترتعد بيدك صحيفة محبّرة لاتغادر بليّة كسبتها ولا مخبأة (١٥٧) أسررتها ، فقرأت ما فيها بلسان كليل وحجّة داحضة وقلب منكسر .

فكم لك من حض وخجل وجبن من المولى الذى لم يزل إليك محسناً ، وعليك ساتراً[١] ؛ فبأى لسان تجيبه حين يسئلك عن قبيح فعلك ، وعظيم جرمك ، وبأى قدم تقف غداً بين يديه ، وبأى نظر تنظر إليه ، وبأى قلب تحتمل كلامه العظيم الجليل ومساءلته وتوبيخه ؟ فتوهم نفسك بصغر جسمك ، وارتعاد جوارحك ، وخفقان قلبك ، وقد سمعت كلامه بتذكير ذنوبك ، وإظهار مساوئك ، وتوقيفك وتقريرك بمخبآتك ؛ فتوهم نفسك بهذه الهيئة والأهوال بك محدقة من خلفك ، فكم من بليّة قد[٢] نسيتها ، قد ذكّركها ، وكم من سريرة قد كنت كتمتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عمل قد ظننت أنه قد خلص لك وسلم بالغفلة منك إلى ميل الهوى عما يفسده قد ردّه فى ذلك الموقف

(١) ساتر . (٢) فوق .

عليك وأحبطه ؛ بعد ما كان تأمُّلك فيه عظيما ، فياحسرات قلبك وتأسّفك على ما فرطت فى طاعة ربّك ، حتى إذا كرّر عليك السؤال بذكر كل بليّة ونشر كل مخبأة فأجهدك الكرب ، وبلغ منك الحياء منتهاه لأنّه الملك الأعلى[١] فلا حياء يكون من أحد أعظم من الحياء منه لأنّه القديم الأوّل الباقى الذى ليس له مثل ، المحسن المتعطّف المتحنّن الكريم الجواد المنعم المتطوّل ، فما ظنّك بسؤال من هو هكذا أبان عن مخالفتك إياه ، وقلّة هيبتك له ، وحيائك منه ، ومبارزتك له ، فما ظنّك بتذكيره إيّاك مخالفته وقلّة اكتراثك فى الدنيا بإلطافه[٢] عليك ونظرك إليه ؛ إذ يقول : يا عبدى أما أجللتنى أما استحييت منّى أستخففت بنظرى إليك ، ألم أحسن إليك ، ألم أنعم عليك ، ما غرّك منّى ، شبابك فيم أبليته ، وعمرك فيم أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته ، وعملك ماذا عملت فيه ؟ — قال ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما منكم من أحد إلّا سيسائله ربّ العالمين ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان . قال سمعت عدى بن حاتم قال ، شهدت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى حديث له : ليقفنّ أحدكم بين يدى الله تبارك وتعالى ليس بينه وبينه حجاب يحجبه ولا بينه وبينه ترجمان يترجم عنه فيقول : ألم أوتك مالاً ؟ فيقولنّ : بلى ، فيقول : ألم أرسل إليك رسولاً ؟ فيقولنّ : بلى ، ثمّ ينظر عن يمينه فلا يرى إلّا النار ، ثمّ ينظر عن شماله

(١) الأعلا . (٢) بالطاعة .

فلا يرى إلاّ النار ، فليتّق آلام النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيّبة . قال : سمعت عبد الله بن مسعود (*) بدأ باليمين قبل الحديث ، فقال : ما منكم من أحد إلاّ سيخلو[١] الله عزّ وجلّ به ، كما يخلو[٢] أحدكم بالقمر ليلة البدر (أو قال للكامة) ، ثمّ يقول : يا ابن آدم ما غرّك بى ، يا ابن آدم ما عملت فيما علمت ، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ عن ابن مسعود أنه بدأ باليمين ، فقال : والله ما منكم من أحد إلاّ سيخلو[٣] به اللهُ عزّ وجلّ كما يخلو[٤] أحدكم بالقمر يراه ثمّ يقول : يا ابن آدم ما غرّك بى ، يا ابن آدم ما عملت لى ، يا ابن آدم ما استحييت منّى ، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ، يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك[٥] وأنت تنظر بهما إلى ما لا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على أذنيك وأنت تستمع بهما[٦] إلى ما لا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على لسانك وأنت تنطق بما لا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على يديك وأنت تبطش بهما إلى ما لا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على رجليك وأنت تمشى بهما إلى ما لا يحلّ لك ، ألم أكن رقيباً على قلبك وأنت تهمّ بما لا يحلّ لك ؟ أم أنكرت قربى منك وقدرتى عليك وأنت يا ابن آدم بين خطرين عظيمين : إما أن يتلافاك برحمته ويتطول عليك بجوده ، وإما أن يناقشك الحساب ، فيأمر بك إلى الهاوية وبئس المصير . عن

(١) سيخلوا . (٢) يخلوا . (٣) سيخلوا .
(٤) يخلوا . (٥) عينك . (٦) ناقص فى الأصل .

مجاهد قال : لا يزول قدم عبد يوم القيامة من بين يدى الله عزّ وجلّ حتى يسئله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه — فما ظنّك بنفسك وضعف قلبك ، والله عزّ وجلّ يكرّر عليك ذكر إحسانه إليك ، ومخالفتك له ، وقلّة حيائك[١] منه ، فأعظمْ به موقفاً وأعظم به من سائل لا تخفى عليه خافية ، وأعظم بما يداخلك من الحزن والغمّ والتأسّف على ما فرّطت فى طاعته وركوبك معصيته ، فإذا تبالغ فيك الجهد من الغم والحزن والحياء بدا لك[٢] منه أحد الأمرين : الغضب أو الرضا عنك والحبّ لك . فإما أن يقول : يا عبدى أنا سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فقد غفرت لك كبير جرمك وكثير سيّئاتك ، وتقبّلت منك يسير إحسانك ، فيستطير بالسرور والفرح قلبُك فيشرق لذلك وجهك ؛ فتوهم نفسك حين قالها لك ، فابتدأ إشراق السرور ونوره فى وجهك بعد كآبته وتكسّفه من الحياء من السؤال والحصر من ذكر مساوىء فعلك ، فاستبدلت بالكآبة والحزن سروراً فى قلبك ، فأسفر وجهك وابيضّ لونك ؛ فتوهم رضاه عنك حين سمعته منه ، فثار فى قلبك (١٥٨) ، فامتلأ سروراً وكدت أن تموت فرحاً وتطير سروراً ، ويحقّ لك ، فأى سرور أعظم من السرور والفرح برضا الله عزّ وجل ، فوالله تعالى لو أنك متّ فرحاً

(١) حياك . (٢) كذا فى الهامش وفى الأصل بدلك .

في الدنيا حين توهم رضاه في الآخرة لكنت بذلك حريا ، وإن كنت لم تستيقن برضاه في الآخرة ، ولكن آملاً لذلك ، فكيف بك مستيقناً له في الآخرة ؛ ولو توهمت نفسك ، وقد بدا لك منه الرحمة والمغفرة كنت حقيقاً أن تطير روحك من بدنك فرحاً ، فكيف إن لو قد سمعت من الله عزّ وجلّ الرضا عنك والمغفرة لك فأمن خوفك وسكن حذرك ، وتحقّق أملك ورجاؤك بخلود الأبد ، وأيقنت بفوزك ونعيمك أبداً لا[1] يفنى[2] ولا يبيد بغير تنقيص ولا تكذيب ؛ فتوهم نفسك بين يدى الله عزّ وجلّ ، وقد بدا لك منه الرضا ، وطار قلبك فرحاً ، وابيضّ وجهك ، وأشرق وأنار وأحال عن خلقته ، فصار كأنه القمر ليل البدر ، ثمّ خرجتَ على الخلائق مسروراً بوجه مجبور قد حلّ به أكمل الجمال والحسن ، يسطع نوراً مشرقاً بتلألائه تتخطاهم بالجمال والحسن والنور والضياء كتابك بيمينك ، أخذ بضبعيك ملك ينادى على رؤوس[3] الخلائق : هذا فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى[4] بعدها أبداً ، لقد شهرك ربك عزّ وجلّ بالرضا عنك عند خلقه ، ولقد حقّق حسن ظنّ الظانّين وأبطل تهم المتهمين لك ، وإنّ في هذه المنزلة غداً على رؤوس الخلائق لَعوَضاً من المنزلة عند العباد بطاعته والتصنّع لهم زهداً في المنزلة عندهم ، والتعظيم عندهُم بطاعة ربه عزّ وَجل بصدق معاملته وحده لا شريك له ، عوّضك المنزلة الكبرى على رؤوس الخلائق

(١) ألا . (٢) يفنا . (٣) روس . (٤) يشقا .

فشهرك برضاه عنك وموالاته إياك ؛ فتوهّم نفسك وأنت تتخطّى[1] الخلائق ، وكتابك في يمينك بجمال وجهك ونوره ، وفرح قلبك وسروره ، وقد شخصتْ أبصارهم إليك غيظةً لك وتأسّفاً على أن ينالوا من الله عزّ وجَل ما نلت ، فليعظم من الله عزّ وجل في طلب ذلك أملك ورجاؤك فإنه عزّ وجل إن تفضل عليك نلت ذلك ، فهذا أحد الأمرين الذى أنت بينهما على خطر — عن صفوان بن محرّز قال : كنت آخذاً بيد عبد الله بن عمر ، فأتاه رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر في النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّ الله عزّ وجل يُدنى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس ، فيقول : يا عبدى أتعرف (*) ذنب كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يا ربِّ ، ثم يقول : يا عبدى أتعرف ذنب كذا وكذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : إني قد سترتها عليك في الدنيا وقد غفرتها لك اليوم ثم يعطى[2] كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافق فيقول : ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ[3] . قال بينا عبد الله بن عمر يطوف بالبيت إذ عارضه رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فذكر مثله . قال سعيد ، قال قتادة : فلم يحزن يومئذ أحد نخفى حزنه على أحد من الخلائق . عن ابن مسعود أنه قال :

(١) تتخطا . (٢) يعطا . (٣) سورة ١١ ، ٢١ .

ينشر الله عزّ وجل كنفه يوم القيامة على عبده المؤمن ، ويبسط كفه لظهرها ، فيقول : يا ابن آدم هذه حسنة قد عملتها فى يوم كذا وكذا قد(١) قبلتها ، وهذه خطيّة قد عملتها فى يوم كذا وكذا قد غفرتها لك فيسجد ، فيقول الناس : طوبى(٢) لهـذا العبد الصالح الذى لم يجد فى صحيفته إلا حسنةً (أو قال فى كتابه) . عن عبد الله بن حنظلة قال : إن الله عزّ وجل يقف عبده يوم القيامة فيبدى(٣) حسناته فى ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هـذا ، فيقول : نعم أى ربّ ، فيقول : إنى لم أفضحك به اليوم وإنى قد غفرت لك اليوم ، فيقول عندها : هاموا(٤) اقرأوا(٥) كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، حين نجا من فضيحة يوم القيامة — وأما الأمر الآخر فإما أن يقول لك : عبدى أنا غضبان عليك فعليك لعنتى ، فلن أغفر لك عظيم ما آتيت ، ولن أتقبل منك ما عملت ؛ فيقول لك فى ذلك عند بعض ذنوبك العظيمة [أن يقول لك] : أتعرفها ؟ فتقول : نعم وعزّتك ، فيغضب عليك فيقول(٦) : وعزّتى لا تذهب بها منى ؛ فنادى الزّبانية فيقول : خذوه ؛ فما ظنّك بالله عزّ وجل يقولها بعظيم كلامه وهيبته وجلاله . فتوهّم إن لم يعف عنك ، وقد سمعتها من الله عزّ وجل بالغضب ، وأسند إليك الزّبانية بغضاضتها وغلاظ أكفّها مستدفرة بأزمّة من النيران غضابًا لغضب(٧) الله عزّ وجل

(١ — ١) فى الهامش . (٢) طوبا . (٣) فيبدا . (٤) هاوم .
(٥) اقروا . (٦) فى الهامش . (٧) بالغضب .

بالعنف عليكَ والغلظ والتشديد ، فلم تشعر حين قالها إلاّ ومجسّة غلاظ أكفّهم فى قفاك وعنقك ؛ فتوهّم غلاظ أكفّهم حين قبضوا على عنقك بالعنف يتقرّبون إلى الله عزّ وجل بعذابك وهوانك . فتوهّم نفسك مستجذبًا ذليلا موقنًا بالهلاك وأنت فى أيديهم وهم ذاهبون بك إلى النار مسودّ وجهك تتخطّى الخلائق بسواد وجهك وكتابك فى شمالك تنادى بالويل والثبور ، والملك آخذ بضبعيك ينادى : هذا فلان بن فلان شقى شقاء لا يسعد بعده (١٥٩) أبداً . لقد شهّرك بالغضب والسخط عليك ، ولقد تمّتْ فضيحتك عند خلقه ، فأخلف حسن ظنّ الظانّين بك ، وحقّق تهم المتهمين لك ، ولعله إن فعل ذلك بك فعله بتصنّعك لطاعته عند عباده بطلب المنزلة عندهم بسقوط المنزلة والجاه عنده ، ففضحك عند من آثرته عليه فى المعاملة ، ورضيت بحمده على طاعة ربك عزّ وجل عوضاً من حمده إياك تبارك وتعالى .

فتوهّم ذلك ثم توهّمه واذكر هذا الخطر ، وكن مفكّراً حذراً أى الأمرين يرتفع بك وأى الأمرين قد أعدّ لك — عن كعب قال : إنّ الرجل ليؤمر به إلى النار فيبتدره مائة ألف ملك . قال أبو عبد الله : وقد بلغنى أنه إذا وقف العبد بين يدى الله عزّ وجل فطال وقوفه ، تقول الملائكة : مالك من عبد عليك لعنة الله أبكلّ هـذا بارزت الله عزّ وجل وقد كنت تظهر فى الدنيا علانية حسنة ؟ قال أبو عبد الله : ولقد بلغنى أيضاً أنه إذا حوسب فوبخ بكثرة أعماله الخبيثة ، تقول

الملائكة : مالك من آدمى عليك لعنة الله ، أبكلّ هذا[١] بارزت الله عزّ وجل ، وقد كنت تظهر الحسن فى الدنيا ؟ قال : من تحبّب إلى الناس بما لا يحبّ الله عزّ وجل ، وبارز الله عزّ وجل بما يكره لقى الله عزّ وجل وهو عليه ساخط وله ماقت ، ثم قال أبو عبد الله[٢] وهو يحدث : والله عزّ وجل ما أمسيت آسفًا علىّ وعليكم — ومع ذلك الجسر بدقّته وزلله وهوله وعظيم خطره قدّامك .

فتوهّم ما حل من الوجل بفؤادك حين رفعت طرفك فنظرت إليه مضروبًا على جهنّم بدقّته ودحوضه ، وجهنّم تخفق بأمواجها من تحته ، فيا له من منظر ما أفظعه وأهوله ، وقد علمت أنك راكب فوقه وأنت تنظر إلى سواد جهنّم من تحته ، وتسمع قصيف أمواجها وجلبة ثورانها من أسفلها ، والملائكة تنادى[٣] : ربّنا من تريد أن تجيزه على هذا ؟ وتنادى[٤] : ربّنا ربنا سلّم سلم ؛ فبينما أنت تنظر إليه بفظاعة منظره إذ نودى مرّوا الساهرة ، فلم تشعر إلا وقد رفعت الأرض من تحتك وتحت الخلائق لأن تبدّل ، ثم بدّلت بأرض من فضّة فإذا الخلائق منشورون على أرض من فضة بيضاء[٥] ، ثم قيل لك وأنت تنظر إلى الجسر بفظاظته وقيل للخلق معك : اركبوا الجسر . فتوهّم خفقان فؤادك وفزعه ، وقد قيل لك اركب الجسر ، فطار عقلك رعبا وفزعا ، ثم رفعت أحد قدميك لتركبه فوجدت بباطن قدميك حدته ودقّته

(١) هذا زائد . (٢) أيوب . (٣ — ٤) فى الهامش . (٥) فى الهامش .

فطار قلبك فزعا ، ثم ثنيت الأخرى فاستويت عليه راكبا وقد أثقلتك أوزارك (*) وأنت حاملها على ظهرك ، ثم صاعدت عليه بطيران قلبك حتى بلغت ذروته والخلائق من بين يديك ومن ورائك[١] عرفا واحداً فصاعدت عليه بطيران قلبك حتى بلغت ذروته ، ثم انحدرت باضطرابه بك والخلائق عليه عرف واحد يضطرب بهم خفقان جهنم تحته ، فتهافت الناس من بين يديك ومن ورائك ؛ فتوهّم صعودك بضعفك عليه ، وقد نظرت إلى الزالّين والزالّات من بين يديك ومن خلفك وقد تنكّست هاماتهم وارتفعت على الصراط أرجلهم وأخذت الملائكة بلحى[٢] الرجال وذوائب النساء من الموحّدين إذ الأغلال فى أعناقهم ، وثارت النار بطلبتها وفارت وشهقت على هاماتهم ، ورمتهم الملائكة بالكلاليب فجذبتهم وثارت إليهم النار بطلبتها وحريقها ، وزفرت[٣] وشهقت عَلَى هاماتهم وبادرت شرر النار إلى هاماتهم فتناولتها ثم جذبت هاماتهم إلى جوفها ، وهم ينادون ويصرخون وقد أيسوا من أنفسهم ، وهم لاجتذاب النار لهاماتهم فيها ينحدرون وهم بالويل ينادون ، وأنت تنظر إليهم مرعوب خائف أن تتبعهم فتزل قدمك فتهوى[٤] من الجسر وتنكسر قامتك وترتفع عَلَى الصراط رجلاك .

فتوهّم ذلك بعقل فارغ وشفقة عَلَى ضعف بدنك مخفّف فى الدنيا للمرور عليه ، فإن أهوال يوم القيامة إنما تخفّف عَلَى أولياء الله عزّ وجل

(١) ولايك . (٢) بلحا . (٣) ورفرت . (٤) فتهوا .

الذين توهموها(١) فى الدنيا(١) بعقولهم فعظم خطر النجاة عندهم ، فتحملوا من ثقل همومها فى الدنيا عَلَى قلوبهم وحرقة خوفها عَلَى ضرورتهم تخففها فى القيامة بذلك عليهم مولاهم ، فألزم قلبك توهمها والخوف منها والغمّ بها لأن يخفّفها عليك بذلك ويهوّنها لأنه آلى عَلَى نفسه ألا يجمع عَلَى أوليائه الخوف فى الدنيا والآخرة .

فتوهّم ممرّك على الجسر بشدّة الخوف وضعف البدن ، وإن يكن مغضوباً عليك غير معفى(٢) عنك ، ولم تشعر إلا وقد زلّت(٣) قدمك عن الصراط ؛ فتوهّم(٣) نفسك إن لم يعف عنك أن زلت رجلك عن الصراط فقلت فى نفسك مع ذلك ذهبت أبدا هذا الذى كنت أحاذر وأخاف ، وطار عقلك ، ثمّ زلت الأخرى فتنكّست هامتك ، وارتفعت عن الصراط رجلاك فلم تشعر إلا والكلّوب قد دخل فى جلدك ولحمك ، فجذبت به وبادرت إليك النار ثائرة غضبانة لغضب مولاها ، فهى تجذبك وأنت تهوى من الجسر وتنادى حين وجدت مسّ نفحها : ويلى ويلى (١٦٠) ، وقد غلب على قلبك الندم والتأسّف إلا كنت أرضيت الله عزّ وجلّ ، فرضى عنك وأقلعت عمّا يكره قبل أن تموت ، فغفر لك ، حتى إذا صرت فى خوفها التحمت عليك بحريقها ، وقلبك قد بلغ غاية حرقته ومضيضه ، فتورّمت فى أوّل ما ألقيت فيها ، ونادى(٤) الله عزّ وجلّ النار وأنت مكبوب على وجهك تنادى بالويل والثبور ،

(١ — ١) فى الهامش . (٢) معفا . (٣ — ٣) فى الهامش . (٤) ونادا .

فناداها : هل امتلأت(١) ؟ فسمعت نداءه وسمعت إجابتها له : هل من مزيد(٢) ؟ يقول هل من سعة وأنت فى قعرها ، وهى تتلهّب فى بدنك ، لها قصيف فى جسدك ، ثمّ لم تلبث أن تقطر بدنك وتساقط لحمك ، وبقيت عظامك ، ثمّ أطلقت النار على ما فى جوفك فأكلت ما فيه ، فتوهّم كبدك والنار تداخل فيها وأنت تنادى فلا ترحم ، وتبكى وتعطى الندم ، إن رددت ألاّ تعود ؛ فلا تقبل توبتك ، ولا يجاب نداؤك(٣) .

فتوهّم نفسك وقد طال فيها مكثك وألحّ العذاب ، فبلغت غاية الكرب ، واشتدّ بك العطش فذكرت الشراب فى الدنيا ، ففزعت إلى الجحيم ، فتناولت الإناء من يد الخازن الموكّل بعذابك ، فلما أخذته نشّت كفّك من تحته ، وتفسّخت لحرارته ، وهيج حريقه ، ثمّ قرّبته إلى فيك فشوى وجهك ، ثمّ تجرّعته فسلخ حلقك ، ثمّ وصل إلى جوفك فقطع أمعاءك ، فناديت بالويل والثبور ، وذكرت شراب الدنيا وبرده ولذّته ، ثمّ أقلعت(٤) الحريق ، فبادرت إلى حياط الحميم لتبرد بها ، كما تعوّدت فى الدنيا الاغتسال والانغماس فى الماء إذا اشتدّ عليك الحرّ فلمّا اغتمست فى الحميم تسلخ من قرنك إلى قدمك ، فبادرت إلى النار رجاء أن تكون هى أهون عليك ، ثمّ اشتدّ عليك حريق النار فرجعت إلى الحميم وأنت تطوف بينها وبين حميم آن ،

(١) املات . (٢) راجع سورة ٥٠ ، ٢٩ (٣) نداك . (٤) أقلقت .

وهو الذى قد انتهى حرّه ، وتطلب الروح فلا روح بين الحميم وبين النار ، تطلب الروح فلا روح أبداً . فلما اشتدّ بك الكرب والعطش وبلغ منك المجهود ذكرت الجنان فهاجت غصّة من فؤادك إلى حلقك أسفاً على جوار الله عزّ وجلّ ، وحزناً على نعيم الجنّة ؛ ثمّ ذكرت شرابها وبرد مائها وطيّب عيشها ، فتقطع قلبك حسرة لحرمان ذلك ؛ ثم ذكرت أنَّ فيها[1] بعض القرابة من أب أو أمّ أو أخ ، وغيرهم من القرابة فناديتهم بصوت محزون من قلب محترق قلق : يا أمّاه أو يا أبتاه أو يا أخاه أو يا خالاه أو يا عمّاه أو يا أختى شربة من ماء ، فأجابوك بالخيبة فتقطَّع قلبك حسرة[2] بما خيَّبوا من أملك ، وبما رأيت من غضبهم عليك لغضب ربِّك عزّ وجلّ (*) ، ففزعت إلى الله بالنداء بالمرجع والعتبي أن يردّك إلى الدنيا ، فمكث عنك دهراً طويلاً لا يجيبك هواناً بك وإنَّ صوتك عنده ممقوت ، وجاهك عنده ساقط ، ثمّ ناداك بالخيبة منه أن أُخْسَؤُا[3] فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ[4] ؛ فلما سمعت نداءه بجلال كلامه بالتخسية لك ابتداء فمثّلك (؟) لا تجاب ومناخرك وفيك مَلجومة[5] بلجام ، فبقى نفسك مترددا فى جوفك لامخرج له ، فضاقت نفسك فى صدرك وبقيت قلقاً تزفر لا تطيق الكلام ولا يخرج منك[6] نفس ؛ ثمّ أراد أن يزيدك إياساً وحسرة ، فأطبق أبواب النار

(١) فيهم . (٢) حسرات . (٣) أحسا .
(٤) سورة ٢٣ ، ١١٠ (٥) ملجومين . (٦) فى الهامش .

عليك وعلى أعدائه فيها . فما ظنّك إن لم يعف عنك ، وقد سمعت رجوف بابها قد أغلق ؟ فيا إياسك ويا إياس سكّان جهنّم حين سمعوا وقع أبوابها تطبق عليهم فعلموا عند ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إنّما أطبقها لئلا يخرج منها أحداً أبداً ؛ فتقطّعت قلوبهم إياساً وانقطع الرجاء منهم ألاّ فرج أبداً ولا مخرج منها ولا محيص لهم من عذاب الله عزّ وجلّ أبداً خلودٌ فلا موت ، وعذابٌ لا زوال له عن أبدانهم ، ودوام حرق قلوبهم ومضيضها ، فلا روح ولا راحة تعلق بهم أبداً ، أحزان لا تنقضى ، وغموم لا تنفد ، وسقم لا يبرأ ، وقيود لا تحلّ ، وأغلال لا تفك أبداً ، وعطش لا يروون بعده أبداً ، وكرب لا يهدأ أبداً ، وجوع لا يشبعون بعده أبداً إلاّ بالزقوم ينشب فى حلوقهم فيستغيثون بالشراب ليسوغوا به غصصهم فيقطع أمعاءهم ، وحسرة فوت رضوان الله عزّ وجلَّ فى قلوبهم ، وكمد حرمان جوار الله عزَّ وجلَّ يتردد[1] فى صدورهم ، لا يرحم بكاؤهم ، ولا يجاب دعاؤهم ، ولا يغاثون[2] عند تضرّعهم ، ولا تقبل توبتهم ، ولا تقال عثرتهم غضب الله عز وجلّ عليهم فلا يرضى عنهم أبداً ؛ إذ أبغضهم ومقتهم ، وسقطوا من عينه ، وهانوا عليه فأعرض عنهم . فلو رأيتهم وقد عطشوا وجاعوا فنادوا من أهل الجنّة الأقرباء فقالوا جميعًا : يا أهل الجنّة يا معشر الآباء والأمّهات والأخوة والأخوات خرجنا من قبورنا عطّاشًا وأُوقفنا بين يدى الله

(١) يترد . (٢) يغانوا .

عزّ وجل عطّاشاً ، وأمر بنا إلى النار عطّاشاً ، أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله ، فأجابوهم بالتخسية فتراجع فى قلوبهم الحسرة والندامة فهم فيها يتقلّقون لا ينفح وجوههم (١) روح أبداً ، ولا يذوقون منها بارداً أبداً ولا يطبقون جفونهم على غمض نوم أبداً ، فهم فى عذاب دائم وهوان لا ينقطع ، فمثّل نفسك بهذا الوصف إن لم يعف عنك .

فلو رأيت المعذّبين فى خلقهم وقد أكلت النار لحومهم ومحت (١٦١) محاسن وجوههم واندرس تخطيطهم ، فبقيت العظام مواصلة محترقة مسودة وقد قلقوا واضطربوا فى قيودهم وأغلالهم وهم ينادون بالويل والثبور ، ويصرخون بالبكاء والعويل ، إذاً لذاب قلبك فزعًا من سوء خلقهم وتضعّفت من رائحة نتنهم ولما بقى روحك فى بَدنك من شدة وهج أبدانهم وحرارة أنفاسهم . فكيف بك إن نظرت إلى نفسك فيها وأنت أحدهم ، وقد زال من قلبك الأمل والرجاء ولزمه القنوط والإياس وعطفت على بدنك فتقحّمت على الحدقتين فسمعت تفضيضهما انتقاماً وبدلا من نظرك إلى ما لا يُحب ولا يرضى ، ودخلت النار فى مسامعك فتسمع لها فيه قصيفاً وجلبة ، والتحفت عليك فنفّضت منك العظام وذوّبت اللحام ، واطّلعت إلى الجوف فأكلت الكبد والأحشاء فغلبت على قلبك الحسرة (٢) والندامة والتأسف .

فتوهم ذلك بعقل فارغ ، وقد هاجت منه رحمة لضعفك وارجع

(١) وجوهم . (٢) الحسرات .

عما يكره مولاك (١) وترضى عسى أن يرضى عنك وأعِذْ به بعقلك واستقله يقلك عثراتك ، وابك من خشيته عسى أن يرحمك ويقيل عثراتك ، فإن الخطر عظيم وإن البدن ضعيف والموت منك قريب ، والله جل جلاله مع ذلك مطّلع يراك ، وناظر لا يخفى (٢) عليه منك سرّ ولا علانية ، فاحذر نظره (٣) بالمقت والبغضة والغضب والقلاء ، وأنت لا تشعر فرحاً أو قرير العين ، فاحذر الله عزّ وجل وخفه واستحى منه وأجلّه ، ولا تستخفّ بنظره ولا تتهاون باطّلاعه ، وأجلّ مقامه عليك وعلمه بك وافرقه واخشه قبل أن يأخذك بغتة ، وليَر أثر مصيبة مخالفتك له ليعلم ما قد بلغ منك خلافه ، فيعظم حزنك ويشتدّ غمّك بمخالفته ، وليعلم أنه قد بلغ إليك خلافه ، فإن علم ذلك منك صفح عنك وعفى عنك ، فلا تتعرض لله عز وجل فإنه لا طاقة لك بغضبه ولا قوّة لعذابه ، ولا صبر لك على عقابه ، ولا صبر عندك عن جواره فتدارك نفسك قبل لقائه ، فكأنك بالموت قد نزل بك بغتة ، الموت فكأن قد نزل (٤) ... فتوهّم ما وصفت لك فإنما وصفت بعض الجمل ، فتوهّم ذلك بعقل فارغ موقن عارف بما قد جنيت على نفسك وما استوجبت بجناياتك ، وفكّر فى مصيبتك فى دينك ، وليَر الله عزّ وجل عليك أثر المصيبة لعله أن يرحمك فيتجاوز عنك لمغفرته وعصمته ، فإن كنت من أهل العفو والتجاوز فتوهّم إن تفضل الله عز وجل عليك بالعفو

(١) فى الهامش . (٢) يخفا . (٣) فى الهامش . (٤) ناقص فى الأصل .

والتجاوز ممرّك على الصراط ونورك معك يسعى بين يديك وعن يمينك وكتابك بيمينك (*) مبيضّ وجهك وقد فصلت من بين يدى الله عز وجل ، وأيقنت برضاه عنك وأنت على الصراط مع زمر العابدين ووفود المتّقين ، والملائكة تنادى سلم سلم ، والوجل مع ذلك لا يفارق قلبك ولا قلوب المؤمنين ، تنادى وينادون : رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) ، فتدبّر حين رأوا المنافقين طفئ نورهم وهاج الوجَل فى قلوبهم فدعوا بتمام النور والمغفرة

فتوهّم نفسك وأنت تمرّ خفيفاً مع الوجل ، فتوهم ممرّك على قدر خفّة أوزارك وثقلها ، فتوهم نفسك وقد انتهيت إلى آخره فغلب على قلبك النجاة وعلا عليك الشفَق ، وقد عاينت نعيم الجنان وأنت على الصراط ، فحنّ قلبك على جوار الله عز وجل واشتاق إلى رضا الله حتى إذا صرت إلى آخره خطوت بأحد رجليك إلى العرصة التى بين آخر الجسر وبين باب الجنة فوضعتها على العرصة التى بعد الصراط ، وبقيت القدم الأخرى على الصراط ، والخوف والرجاء قد اعتليا فى قلبك وغلبا عليك ، ثم ثنيت بالأخرى فجزت الصراط كلّه واستقرت قدماك على تلك العرصة ، وزلت عن الجسر ببدنك ، وخلفته وراء ظهرك ، وجهنم تضطرب من تحت من يمر عليها ، وتثب على من زل عنه مغتاظة تزفر عليه وتشهق إليه ، ثم التفتّ إلى الجسر فنظرت إليه باضطرابه ونظرت

(١) سورة ٦٦ ، ٨

إلى الخلائق من فوقه وإلى جهنم من تحته تثب وتزفر على الذين زلزلوا عن الصراط لها فى رؤوسهم(١) وأنجاثهم قصيف ، فطار قلبك فرحاً إذ رأيت عظيم ما نجاك الله منه ، فحمدت الله وازددت له شكراً إذ نجوت بضعفك من النار وخلفت النار وجسرها من وراء ظهرك متوجّهاً إلى جوار ربك ، ثم خطوت آمناً إلى باب الجنة قد امتلأ قلبك(٢) سروراً وفرحا ، فلا تزال فى ممرّك بالفرح والسرور حتى توافى أبوابها(٣) ، فإذا وافيت بابها(٣) استقبلك بحسنه فنظرت إلى حسنه ونوره وحسن صورة الجنة وجدرانها ، وقلبك مستطير فرح مسرور متعلق بدخول الجنة حين وافيت بابها أنت وأولياء الرحمن . فتوهم نفسك فى ذلك الموكب وهُم أهل كرامة الله ورضوانه مبيضّة وجوههم مشرقة برضا الله مسرورون فرحون مستبشرون ، وقد وافيت باب الجنّة بغبار قبرك ، وحرّ المقام ووهج تعب(٤) ما مرّ بك ، فنظرت إلى العين التى(٥) أعدها الله لأوليائه وإلى حسن مائها ، فانغمست فيها مسرورا لما وجدت من برد مائها وطيبه ، فوجدت له برداً وطيباً ، فذهب عنك بحزن المقام وطهّرك من كلّ دنس وغبار وأنت مسرور لما وجدت من طيب مائها لمّا باشرته وقد أفلتّ من وهج الصراط (١٦٢) وحرّه لأنّه قد يوافى بابها من أحرقت النار بعض جسده بلحفها وقد بلغت منه ، فما ظنّك وقد

(١) روسهم . (٢) ناقص فى الأصل . (٣) — (٣) فى الهامش .
(٤) فى الهامش . (٥) الذى .

انفلتّ من حرّ المقام ووهج أنفاس الخلائق ، ومن شدّة توهّج حرّ الصراط فوافيت باب الجنّة بذلك ، فلما نظرت إلى العين قذفت بنفسك فيها ؛ فتوهّم فرحة فؤادك لمّا باشر برد مائها بدنك بعد حرّ الصراط ووهج القيامة وأنت فرح لمعرفتك أنك إنما تغتسل لتتطهّر لدخول الجنة والخلود فيها ، فأنت تغتسل منها دائبا ولونك[١] متغيّر حسناً وجسدك يزداد نضرة وبهجة ونعيما ، ثم تخرج منها فى أحسن الصور وأتمّ النور ؛ فتوهّم فرح قلبك حين خرجت منها فنظرت إلى كمال جمالك ونضارة وجهك وحسنه وأنت عالم موقن بأنّك تتنظّف للدخول إلى جوار ربّك . ثم تقصد إلى العين الأخرى فتناولُ من بعض آنيتها ؛ فتوهمْ نظرك إلى حسن الإناء وإلى حسن الشراب وأنت مسرور بمعرفتك أنك إنما تشرب هذا الشراب لتطهر جوفك من كل غلّ وجسدك ناعم أبداً ، حتى إذا وضعت الإناء على فيك ثم شربته وجدت طعم شراب لم تذق مثله ولم تعوّد شربه فيسلس من فيك إلى جوفك فطار قلبك سرورا لما وجدت من لذته ، ثم نقى جوفك من كلّ آفة ، فوجدت لذة طهارة صدرك من كلّ طبع كان فيه ينازعه إلى الغموم والهموم والحرص والشدّة والغضب والغلّ . فيا برد طهارة صدرك ، ويا روح ذلك على فؤادك ، حتى إذا استكملت طهارة القلب والبدن واستكمل أحبّاء الله ذلك معك ، والله مطّلع يراك ويراهم ، أمر مولاك

(١) ولونك .

الجواد المتحنّن خزّان الجنّة من الملائكة الذين لم يزالوا مطيعين خائفين منه مشفقين وجلين من عقابه إعظاماً له وإجلالا وهيبة له وحذراً من نقمه ، وأمرهم أن يفتحوا باب جنّته لأوليائه فانحدروا من دارها وبادروا من ساحاتها وأتوا باب الجنّة فمدّوا أيديهم ليفتحوا أبوابها ، وأيقنت بذلك فطار قلبك سروراً وامتلأت فرحاً وسمعت حسن صرير أبوابها فعلاك السرور وغلب على فؤادك ، فيا سرور قلوب المفتوح لهم باب جنّة ربّ العالمين ، فلمّا فتح لهم بابها هاج نسيم طيب الجنان وطيب جرى مائها فنفح وجهك وجميع بدنك وثارت أراييح الجنّة العبقة الطيّبة وهاج ريح مسكها الأذفر وزعفرانها المونع وكافورها الأصفر وعنبرها الأشهب وأرياح طيب ثمارها (*) وأشجارها وما فيها من نسيمها ، فتداخلت تلك الأراييح فى مشامّك حتى وصلت إلى دماغك وصار طيبها فى قلبك وفاض من جميع جوارحك ، ونظرت بعينك إلى حسن قصورها وتأسيس بنيانها من طرائق الجندل الأخضر[١] من الزمرّد والياقوت الأحمر والدرّ الأبيض قد سطع منه نوره وبهاؤه وصفاؤه ، فقد أكمله الله فى الصفاء والنور ومازجه نور ما[٢] فى الجنان ، ونظرت إلى حجب الله وفرح فؤادك لمعرفتك أنّك إذا دخلتها فإنّ لك فيها الزيادات والنظر إلى وجه ربّك ، فاجتمع طيب[٣] أراييح الجنّة وحسن بهجة[٤] منظرها وطيب[٤] نسيمها وبرد جوّها

(١) الأحمر . (٢) نورما . (٢) فى الهامش . (٤) — (٤) منظر طيبٌ .

وذلك أوّل روح وطيب لا تنفيض فيه نفح وجهك .

فتوهّم نفسك مسرورا بالدخول لعلمك أنّها يفتح بابها لك والذين معك أولياء الله وفرحك بما تنظر إليه من حسن بهجتها وما وصل إلى فؤادك من طيب رائحتها وما باشر وجهك وبدنك من طيب جوّها وبرد نسيمها . فتوهّم نفسك أن تفضّل الله عليك بهذه الهيئة فلو متّ فرحا لكان ذلك يحقّ لك حتى إذا فتحوا بابها أقبلوا عليك ضاحكين فى وجهك ووجوه أولياء الله معك ، ثمّ رفعوا أصواتهم يحلفون بعزّه ما ضحكنا قط منذ خلقنا إلاّ إليكم ، ونادوكم سلام عليكم ؛ فتوهّم حسن نغماتهم وطيب كلامهم وحسن تسليمهم فى كمال صورهم وشدّة نورهم ، ثمّ أتبعوا السلام بقولهم : طبتم فادخلوها خالدين ، فأثنوا عليهم بالطيب والتهذيب من كلّ دنس ودرن وغلّ وغش ، وكل آفة فى دين أو دنيا ، ثمّ أذنوا لهم على الله بالدخول فى جواره ، ثمّ أخبروهم أنّهم باقون فيها أبدا ، فقالوا طبتم فادخلوها خالدين ، فلمّا سمعت الإذن وأولياء الله معك بادرتم الباب بالدخول فكظّت الأبواب من الزحام — كما قال عتبة بن غزوان وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم : لانقصافهم على باب الجنّة أهمّ إلىّ من شفاعتى ، فكظّ من الزحام — فما ظنك بباب مسيرة أربعين عاماً كظيظه من زحام أولياء الرحمن فأكرم بهم من مزدحمين مبادرين إلى ما قد عاينوا من حسن القصور من الياقوت

والدرّ . فتوهّم نفسك أن عفا[1] الله عنك فى تلك الزحمة مبادرا مع مبادرين مسرورا مع مسرورين بأبدان قد طهرت ووجوه قد أشرقت وأنارت فهى كالبدر ، قد سطع من أعراضهم كشعاع الشمس ، فلمّا جاوزت بابها ووضعت قدميك على تربتها وهى مسك (١٦٤) أذفر ونبت الزعفران المونع والمسك مصبوب على أرض من فضّة والزعفران نابت حولها فذلك أوّل خطوة خطوتها فى أرض البقاء بالأمن من[2] العذاب والموت ، فأنت تتخطى فى ترب المسك ورياض الزعفران ، وعيناك ترمقان حسن بهجة الدرّ من حسن أشجارها وزينة تصويرها ، فبينا أنت تتخطى فى عرصات الجنان فى رياض الزعفران وكثبان المسك إذ نودى فى أزواجك وولدانك وخدّامك وغلمانك وقهارمتك إنّ فلانا قد أقبل فأجابوا واستبشروا لقدومك كما يبشر أهل الغائب فى الدنيا بقدومه — كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه — فبينما أنت تنظر إلى قصورك إذ سمعت جلبتهم وتبشيشهم فاستطرت لذلك فرحا ، فبينما أنت فرق مسرور[3] بغبطتهم لقدومك لما سمعت إجلابهم فرحا بك إذ ابتدرت القهارمة إليك وقامت الولدان صفوفاً لقدومك ، فبينما أنت القهارمة مقبلة[4] إليك إذ استخفّ أزواجك العجلة فبعثت كلّ واحدة منهنّ بعض خدمها لينظر إليك مقبلا ويسرع بالرجوع إليها بقدومك لتطمئنّ إليه فرحا وتسكن إلى ذلك سروراً فتنظر إليك الخدم

(١) عفى . (٢) فى الهامش . (٣) فرقا مسروراً . (٤) مقلة .

قبـل أن تلقاك قهارمتك ، ثمّ بادر رسول كلّ واحدة منهنّ إليها فلما أخبرها بقدومك قالت كلّ واحدة منهنّ لرسولها أنت رأيته من شدّة فرحها بذلك ثم أرسلت كلّ واحدة منهنّ رسولا آخر فلما جاءت البشارات بقدومك إليهنّ لم يتمالكن فرحا فأردن الخروج إليك مبادرات إلى لقائك لولا أنّ الله كتب القصر لهنّ فى الخيام إلى قدومك كما قال مليكك : حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ[1] ، فوضعن أيديهنّ على عضائد أبوابهنّ وأذرعن بروؤسهنّ[2] ينظرن متى تبدو[3] لهنّ صفحة وجهك فيسكن طول حنينهنّ وشدّة شوقهنّ إليك وينظرن إلى قرير أعينهنّ ومعدن راحتهنّ وأنسهنّ إلى ولىّ ربّهنّ وحبيب مولاهنّ ؛ فبينا أنت ترفل فى كثبان المسك ورياض الزعفران وقد رميت ببصرك إلى حسن بهجة قصورك إذ استقبلك قهارمتك بنورهم وبهائهم فاستقبلك أوّل قهرمان لك فأعظمت شأنه وظننت أنه من ملائكة ربك فقال لك : ياولىّ الله إنما أنا قهرمانك وكلت بأمرك ولك سبعون ألف قهرمان سواى ، ثمّ تتابعه القهارمة ببهائهم ونورهم كلّ يعظمك ويسلّم عليك بالتعظيم لك .

فتوهم قلبك فى الجنان وقد قامت بين يديك قهارمتك معظمين لك ثم الوصفاء والخدّام (*) فاستقبلوا كأنّهم اللؤلؤ المكنون فسلّموا عليك ، ثمّ أقبلوا بين يديك ؛ فتوهم تبخترك فى موكب من قهارمتك

(١) سورة ٥٥ ، ٧٢ (٢) بروسهن . (٣) تبدوا .

وخدّامك يزفّونك زفا إلى قصورك وما أعدّ لك مولاك ومليكك ، فلما أتيت باب قصرك فتحت الحجّاب أبوابك ورفعت لك الستور وهم قيام على أقدامهم لك معظمين ، فتوهم ما عاينت حين فتحت أبواب قصورك ورفعت ستوره من حسن بهجة مقاصيره وزينة أشجاره وحسن رياضه وتلألؤ صحنه ونور ساحاته ؛ فبينا أنت تنظر إلى ذلك إذ بادرت البشرى من خدّامك ينادون أزواجك : هذا فلان بن فلان قد دخل من باب قصره ، فلما سمعن نداء البشراء بقدومك ودخولك توثبن من الفرش على الأسرة فى الحجال وعينك ناظرة إليهنّ فى جوف الخيام والقباب فنظرت إلى وثوبهنّ مستعجلات قد استخفّهنّ الفرح والشوق إلى رؤيتك ؛ فتوهم تلك الأبدان الرخيمة الرعبوبة الخريدة الناعمة يتوثبن بالتهادى والتبختر ، فتوهم كلّ واحدة منهنّ حين وثبت فى حسن حللها وحليتها بصباحة وجهها ، وتثنى بدنها بنعمته ، فتوهم انحدارها مسرعة بكمال بدنها نازلة عن سريرها إلى صحن قبتها وقرار خيمتها فوثبن حتى أتين أبواب خيامهن وقبابهن ، ثم أخذن بأيديهن عضائد أبواب خيامهن للقصر الذى ضرب عليهن إلى قدومك فقمن آخذات بعضائد أبوابهن ، ثم خرجن برؤوسهن[1] ووجوههن[2] يتحدرن من أبواب قبابهن متطلّعات ينظرن إليك مقبلات قد ملئن منك فرحا وسرورا .

(١) بروسهن . (٢) ووجوهن .

فتوهم نفسك بسرور قلبك وفرحه وقد رمقتهنّ ببصرك ووقع ناظرك على حسن وجوههنّ وغنج أعينهنّ فلما قابلت وجوههن حار طرفك وهاج قلبك بالسرور فبقيت كالمبهوت الذاهل من عظيم ما هاج فى قلبك من سرور ما رأت عيناك وسكنت إليه نفسك ، فبينما أنت ترفل إليهنّ إذ دنوت من أبواب الخيام فأسرعن مبادرات قد استخفّهنّ العشق مسرعات يتثنين من نعيم الأبدان ويتهادون من كمال الأجسام ثم نادتك كلّ واحدة منهن : ياحبيبى ما أبطأك علينا ؟ فأجبتها بأن قلت : ياحبيبة ما زال الله عز وجل يوقفنى على ذنب كذا وكذا حتى خشيت أن لا أصل إليكن (١٦٥) فمشين نحوك فى السندس والحرير يثرن المسك ويحركن نبت الزعفران بأذيال حللهن وخلاخيلهن استعجالا إليك وشوقا وعشقا لك ، فأول من تقدمت منهن[١] إليك مدت إليك بنانها ومعصمها وخاتمها كما قال النبى عليه السلام ؛ فتوهم حسن بنان أنشئ من الزعفران والكافور ، ونعم فى الجنان الألف من الدهور ، فتوهمه حين مدّته إليك يتلألأ نوراً ويضىء إشراقاً ، فلما وضعت بنانها فى بنانك وجدت مجسّة ليّنة بنعيمه وكاد أن ينسل من يديك للينه ، وكاد[٢] عقلك أن يزول فرحاً بما وصل إلى قلبك من طيب مسيس بنانها ، ثم مدت يدك إلى جسمها الرخيم الناعم فضمتك إلى نحرها فانثنيت عليها بكفك وساعدك حتى وضعته على قلائدها من حلقها ، ثم ضممتها إليك

(١) تقدمتهن . (٢) كاد .

وضمتك إليها ؛ فتوهم نعيم بدنها لما ضمتك إليها كاد أن يداخل بدنك بدنها من لينه ونعيمه ، فتوهم ماباشر صدرك من حسن نهودها ولذة معانقتها ، ثمّ شممت طيب عوارضها فذهب قلبك من كل شيء سواها حتى غرق فى السرور وامتلأ فرحا لما وصل إلى روحك من طيب مسيسها ولذة روائح عوارضها ؛ فبينما أنت كذلك إذ تمايعن عليك فانكببن عليك يلثمنك ويعانقنك فملأن وجهك بأفواههن ملتثمات وملأن صدرك بنهودهنّ فأحدقن بك بحسن وجوههن وغطين بدنك وجللنه بذوائبهن واستجمعت فى مشامك أراييح طيب عوارضهن ؛ فتوهم نفسك وهن عليك منكبات بفيك ملتثمات متشممات عليك متثنيات بنعيم أبدانهن ، لهن استراحة عند ضمك إليهن لشدة العشق وطول الشوق إليك متشبثات بجسمك ومتنعمات بنسيم أراييح عوارضك ، فلما استمكنت خفّة السرور من قلبك وعمت لذة الفرح جميع بدنك وموعد الله عز وجل فى سرورك فناديت بالحمد لله الذى صدقك الوعد وأنجز لك الموعد ، ثم ذكرت طلبك إلى ربك إياهن بالدؤوب[١] والتشمير ، فأين أنت فى عاقبة ذلك العمل الذى استقبلته وأنت تلتثمهن وتشم عوارضهن لمثل هـذا فَلْيَعمل العَامِلُونَ[٢] ، ثم أثنين عليك وأثنيت عليهن ، ثم رفعن أصواتهن ليؤمنّك بذلك من المعرفة لهن بحوادث الأزمان وتنغيص عيشك بأخلاقهن فنادين جميعاً بأصواتهن (*)

(١) بالدوب . (٢) سورة ٣٧ ، ٥٩

نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ونحن الخالدات فلا نبيد أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ، طوباك أنت لنا ونحن لك ؛ ثم مضيت معهن فيا حسن منظرك وأنت فى موكبك من حورك وولدانك وخدامك ، حتى انتهيت إلى بعض خيامك فنظرت إلى خيمة من درة مجوفة مفصصة بالياقوت والزمرد فنظرت إلى حسن أبوابها وبهجة ستورها ، ثم رميت ببصرك إلى داخلها فنظرت إلى فرشها ونجدها وزرابيها وحسن تأسيس بنيانها[١] قد بنيت[١] طرائق على جنادل الدر والياقوت ، ثم نظرت إلى سريرك فى ارتفاعه وعليه فرشه ، من الحرير والإستبرق بطائنهن ، قد علا ظواهرهن من النور المتكثف وعلى أطرافهن من فوق الحرير والديباج وحسن الرفرف الأخضر وهى فصول المجالس ، فلما تأملت تلك الفرش بحسنها وفوقها المرافق قد ثنتها حار طرفك فيها ، ثم نظرت إلى حجلتها من فوق سريرها قد أحدقت بالعرش من فوقها .

فتوهم حسن الأبواب وحسن الستور وحسن[٢] عرصة القبّة بحسن فرشها وحسن السرير وحسن قوائمه وارتفاعه وحسن الفرش فوقه والمرافق فوق فرشه والحجلة المضروبة من فوق ذلك كلّه فتمائل[٣] ذلك كلّه ببصرك ، فلما دنوت من فرشك تطأمنت مع سريرك فارتفعت الحوراء وارتقيت معها . فتوهم صعودها عليه بعظيم بدنها ونعيمه حتى

(١ — ١) فى الهامش . (٢) فى الهامش . (٣) فتمالت .

استوت عليه جالسة ، ثم ارتقيت على السرير فاستويت عليه معها فقابلتك وأنت مقابلها ، فيا حسن منظرك إليها جالسة فى حللها وحليها بصباحة وجهها ونعيم جسمها ، الأساور فى معاصمها والخواتم فى أكفها والخلاخيل فى أسواقها والحقاب فى حقوها والوشاح قد تنظّر نهديها وجال بخصرها والقلائد فى عنقها والشحب على نحرها والأكاليل من الدر والياقوت على قصتها وجبينها والتاج من فوق ذلك على رأسها والذوائب من تحت التاج قد حل من مناكبها وبلغ أردافها وأنعالها ، ترى[١] وجهك فى نحرها وهى تنظر إلى وجهها فى نحرك ، وقد أحدق الولدان بقبتك وقد قام الوهط بين يديك ويديها ، وقد تدلّت[٢] الأشجار بثمارها من جوانب حجلتك واطردت الأنهار حول قصرك واستعلى[٣] الجداول على خيمتك بالخمر والعسل واللبن والسلسبيل (١٦٦) وقد كمل حسنك وحسنها وأنت لابس الحرير والسندس وأساور الذهب واللؤلؤ على كلّ مفصل من مفاصلك ، وتاج الدرّ والياقوت منتصب فوق رأسك ، وأكاليل الدر مفصصة بالنور على جبينك ، وقد أضاءت الجنّة وجميع قصورك من إشراق بدنك ونور وجهك وأنت تعاين من صفاء قصورك جميع أزواجك وخدمك وجميع أبنية مقاصيرك ، وقد تدلّت عليك ثمار أشجارك واطردت أنهارك من الخمر واللبن من تحتك والماء والعسل من فوقك وأنت جالس مع زوجاتك

(١) ترا . (٢) تدللت . (٣) واستعلا .

على أريكتك ، وقد فتحت مصاريع أبوابك وأرخيت عليك حجال خيمتك وحفّت(1) الخدّام والولدان بقبتك وسمعت زجلهم بالتقديس لربك ، وقد اطّلعوا على ضمير قلبك فسارعوا إلى كلّ ما حدثت به نفسك من أنواع كرامتك وسرورك وأمانيك فأتوك بكل أمنيتك ، وأنت وزوجك بأكمل الهيئة وأتم النعمة ، وقد حار فيها طرفك تنظر إليها متعجباً من جمالها وكمالها طرب قلبك بملاحتها وأنس قلبك بها من حسنها ، فهى منادمة لك على أريكتك تنازعك وتعاطيك الخمر والسلسبيل والتسنيم فى كأسات الدر وأكاويب قوارير الفضة . فتوهم الكأس من الياقوت والدر فى بنانها ، وقد قربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها فسطع نور بنانها فى الشراب مع نور وجهها ونحرها ونور الجنان ونور وجهك وأنت مقابلها ، واجتمع فى الكأس الذى فى بنانها نور الكأس ونور الشراب ونور وجهها ونور نحرها ونور ثغرها ، فما ظنك بذوائب شاب أمرد كامل الخلق ، أنور الوجه ، أبيض الجسم ، أنضر الثياب أصفر الحلى من ذهب الجنان يشوبه حمرة الياقوت وبياض الدر وحسن العقيان ، فيا لك عروس ويا تلك عروس طفلة أنيسة عربوبة كامل خلقها ، ويا جمال وجهها ، ويا بياض نهودها وتثنى جسمها ، يكسوها التأنيث ويلينها النعيم تنظر إليك بغنج الحور وتكلّمك بملاحة المنطق وتداعبك بالدلائل وتلاعبك بالعشق والطرب ، بيدها كأس در لا ظل

(1) وخفت .

له أو ياقوت لا شبه له من صفائه ورقّة جسمه ، قد جملته بحسن كفها وزميرتها ونور خواتمها فيه ؛ فتوهم حسن الكأس مع بياضه مع بياض الشراب (*) مع بياض كفيها وحسنه ، فتوهم كأس الدر والياقوت أو الفضة فى صفاء ذلك فى بنانها الكامل ، وقد اقتربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها وسطع نور بنانها فى الشراب مع نور وجهها ونحرها وأنت مقابلها فضحكت أيضاً إليها فاجتمع فى الكأس الذى فى بنانها نورك مع نورها مع نور الكأس ونور الشراب ونور وجهها ونور نحرها ونور ثغرها ونور الجنان ؛ فتوهمه بهذه الأنوار فى ضيائه يلمع بصفائه فى كفها ، وقد مدّت به إليك يدها بخواتمها وأساورها فى معاصمها فناولتك الكأس بكفها ، فيا حسن مناولتها ويا حسنها من يد ، ثم تعاطتك(1) كأسات الخمر فى دار الأمن واللذات والسرور ، فتناولته منها ثم وضعته على فيك ثم سلسلته فى فيك ، فسار سروره فى قلبك وعمت لذته جوارحك فوجدت منه طعماً أطيب طعم وألذه فشربته والولدان قيام بين يديك . فتوهم ذلك وقد شربت الكأس من يدها ، ثم ناولتها من يدك فتناولته بحسن كفها وهى ضاحكة ، فيا حسن مضحكها فشربته من يدك حتى إذا تعاطيتها الكأس ودار فيما بينكما وشاع نور الشراب فى وجنتيها ورفعتما أصواتكما بالتحميد والتقديس لمولاكما وسيّدكما ورفعت الولدان والخدّام أصواتهم تسبيحاً وتهليلاً مجاوبة لكما فيا حسن

(1) تعاطيتك .

تلك الأصوات بتلك النغمات فى تلك القصور وتلك الخيمات ؛ فبينما أنتما فى لذاتكما وسروركما وقد مضت الأحقاب من الدهور وما تشعران من اشتغال قلوبكما بنعيمكما إذ هجمت الملائكة بالسلام عليك وأتتك بالتحف والألطاف من عند ربك حتى إذا انتهت رسل ربك إلى الحجبة الذين دونك والقهارمة الموكلين بك فطلبوا إليهم الإذن عليك ليوصلوا ما أتوا به من عند مولاك إليك فقالت عند ذلك حجبتك للملائكة ربك : إنّ ولى الله مشغول مع أزواجه وإنّا لنكره الإذن عليه إعظاماً وإجلالاً له ، وكذلك يقول الله ربك تبارك وتعالى : فى شُغُلٍ فَاكِهُونَ(١) وبذلك جاء التفسير فأعظم به من شغل وأعظم بك من ملك تستأذن عليك رسل ربك ، وكذلك يقول الرافع قدر أوليائه فى جواره تبارك وتعالى : وإذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(٢) فقيل فى التفسير (١٦٧) إنّ ذلك استئذان الملائكة عليهم فقيل له رسول الله بالباب يا ولى الله لا يدخل عليك(٣) إلا بإذن يا ولى الله فقد نلت من الله الرضا وبلغت غاية الملك والمنى(٤) .

فتوهم الملائكة وهى قائلة حين أبت حجّابك أن تستأذن لهم عليك : إنّا رسل الله إليه بهدايا وتحف من عند ربه ، فوثبت عند ذلك حجابك تستأذن لهم عليك . فتوهَّم أيدى الحجاب وقد مدوا بها إلى حلق

(١) سورة ٣٦ ، ٥٥ (٢) سورة ٧٦ ، ٢٠ (٣) عليه .
(٤) والمنا .

الياقوت المفصص بالدر على صفائح الذهب الأحمر فقرعوا حلق أبواب قصرك ، فلما اصطك حلق الياقوت بأبواب قصرك من الدر والزمرد طنت الحلق على الأبواب بأحسن طنين تلذ به الأسماع وتسر(١) به قلوب المستمعين ، فلما سمعت الأشجار طنينها تمايلت ثمارها على بعضها بعضا فهبت بذلك أراييح طيبها ونسيمها ، ثم(٢) أشرقت من قبتك بجمال وجهك وإشراق نورك فبادرت الحجبة إليك بالقول مسرعة وهى مع ذلك غاضّة أبصارها تعظيما لك ، ولما رمق أبصارهم من إشراق نور وجهك : أن يا ولى الله رسل الله إليك بالباب ومعهم التحف من عند ربك ، فرجعت إليهم بالجواب : أن أْذنوا لرسل مولاى ، ففتحت الحجبة عند إذنك لهم أبواب قصرك وأنت متكئ ، فدخلوا على أريكتك والولدان قد صفوا بين يديك فأقبلت الملائكة بحسن صورهم والهدايا تلمع وتسطع نوراً فى أيديهم ، فدخلوا عليك من أبواب متفرقة لينجز لك ربك ما وعدك من كل باب سلام عليك ، فبادروا بالسلام عليكم بحسن نغماتهم من كل أبوابك ، ثم أتبعوا تسليمهم : يا ولى الله إن ربك يقول عليك السلام ، وقد أرسل إليك بهذه الهدايا والتحف .

فتوهم سرور قلبك بتحف ربك ولطفه(٣) إياك ، حتى إذا خرجوا من عندك أقبلت على نعمتك مع زوجتك قد حار فيها طرفك واشتد بها سرورك ؛ فبينا أنت معها فى غاية السرور والحبور إذ أتى(٤) النداء

(١) وتشر . (٢) ناقص فى الأصل . (٣) ولفطه . (٤) أتا .

بأحسن نغمة وأحلى(١) كلام من بعض ما أعد الله من أزواجك : يا ولى الله أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تنظر إلينا ؟ فلما امتلأت(٢) مسامعك من حسن كلامها طار قلبك عشقاً لحسن نغمتها فأجبتها(٣) : ومن أنت بارك الله فيك ؟ فردت الجواب إليك : أنا من اللواتى قال الله عز وجل : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ (*) مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ(٤) . فتوهم وُثُوبك من سريرك إلى صحن قبتك ، ثم مشيت مع ولدانك وخدمك وقرن(٥) ولدانها وخدامها يستقبلونك واستقبلوك ومشوا بين يديك حتى أتيت قبّة من ياقوتة حمراء فى قصر من در وياقوت ، فلما دنوت من باب قصرها قامت قهارمتك وخدامك رافعى ستور قصرك فدخلته ممتلئا سروراً . فتوهم باب القصر وحسن الستر وحسن الحجّاب والقهارمة والخدام ، ثم دخلت من باب قصرك الذى نادتك منه زوجتك ، فلما دخلت من بابه وقع بصرك على حسن جدرانه من الزمرد الأخضر ، وحسن رياضه ، وبهجة بنائه ، وإشراق عرصاته ، ونظرت إلى قبتك التى فيها زوجتك يتلألأ نور القبة نوراً وضوءاً وإشراقا بنور وجهك ونور وجه زوجتك ، فلما نظرت إليك نظرت من فرش الحرير والإستبرق والأرجوان فنزلت عن سريرها مبادرة قد استخفّها شدة الشوق إليك وأزعجها العشق فاستقبلتك بالترحيب والتبجيل ثم عطفت عليك لمعانقتك — وكذلك روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه

(١) وأحلا . (٢) امتلت . (٣) أجبتها . (٤) سورة ٣٢ ، ١٧
(٥) وثرن .

وسلم إنّ الحوراء تستقبل ولى الله فتصافحه — فتوهم مجسّة لين كفّها بحسنها وخواتمها فى كفك ، وقد شخصتَ كالمبهوت تعجباً من حسن وجهها ونعيم جسمها وتلألؤ(١) النور من عوارضها ، ثم وضعت كفّها فى كفّك حتى أتيتما سريرك مضروبة عليه أريكتك فارتقيتما جميعاً على أريكتك واستدلّت عليك جلال حجلتك وعانقت على فرشها زوجتك فمضت بك الأزمنة الطويلة ، ثم أقبلت الولدان(٢) بالكاسات والأكواب فاصطفّت قبالتكما ، ثم أدرتما الكأس فيما بينكما ، فبينما أنتما قد ملئتما فرحاً وسروراً إذ نادتك أخرى من قصر من قصورك : يا ولى الله أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تشتاق إلينا ؟ فأجبتها : ومن أنت بارك الله فيك ؟ فرجعت إليك القول أنا من اللواتى قال الله جل وعز : وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٣) ، فتحولت إليها وأنت تنتقل فيما بين أزواجك فى قصورك وخدّامك وولدانك فى غاية النعيم وكمال السرور ، وقد زحزحت عنك كل آفة ، وأزيل عنك كل نقص ، وطهرت من كل دنس ، وأمنت فيها الفراق ؛ لأن الله تعالى قد قصد قلبك فقال (١٦٨) للهموم زولى عنه فلا تخطرى له أبداً ، وقال للسرور تمكن فيه فلا تزول منه(٤) أبداً ، وقال للأسقام زولى عن جسمه فلا تعرضى(٥) له أبداً ، وقال للصحة أقيمى فى بدنه فلا تبرحى أبداً ، وذبح الموت وأنت تنظر إليه

(١) وتلالى . (٢) فى الهامش . (٣) سورة ٥٠ ، ٣٤
(٤) منه . (٥) تعرض .

فأمنت الموت فلا تخافه أبداً ، ولا زوال ترتقبه ولا سقم يعتريك أبداً ، ولا موت يعرض لك أبداً ، قد منحت جوار ربك ترفل فى أذيالك لا تخاف سخطه أبداً بعد رضاه[١] عنك ، فلا تخاف نقمه فيما تتقلب [فيه] من نعيمه ، وأنت عالم بأنّ الله عز وجل محب لك مسرور بك وبما تتقلّب فيه من سرورك ، فأعظم بدار الله داراً ، وأعظم بجوار الله جواراً[٢] ، فالعرش قد أظلّك بظلّه ، والملائكة تختلف إليك بالألطاف من عند ربك فى حياة لا يزيلها موت ، ونعيم لا تخاف له فوتا ، آمنا من عذاب ربك ، قد أيقنت برضاه[٣] عنك ، ووجدت برد عفوه فى قلبك مقيما دائما فى الخلود مع الأمان[٤] لنوائب الدهر وحوادث الأزمان لك[٤] ولجميع أوليائه ، متحدثا بجمعهم تحت ظل طوبى[٥] ؛ فبينا أولياؤه وأنت فيهم تحت ظل طوبى يتحدثون إذ أمر الله مناديا من ملائكته فنادى[٦] أولياءه لينجز لأوليائه ما وعدهم من غاية كرامته وعظيم مسرته بأن يقربهم منه ويناجيهم بترحيبه ويريهم وجهه الكريم ليبلغوا بذلك أشرف المنازل وغاية السرور ومنتهى الرغبة ، فلم تشعر إلاّ ونداء الملك : أن يا أهل الجنة إنّ لكم عند الله لموعداً لم تروه ، فيرجعون إليه القول استعظاماً لما أعطوا ؛ فإن لا عطية فوق ما أعطوا بعد ذلك ، أدخلوا فى جواره وأمنوا من عذابه وأنت قائلها معهم : ألم ينظر

(١) رضايه .   (٢) جوار .   (٣) برضايه .   (٤ — ٤) فى الهامش .
(٥) طوبا .   (٦) فنادا .

وجوهنا ، ألم يدخلنا الجنة ، ألم يزحزحنا عن النار ، فناداهم أن الله يستزيركم فزوروه ؛ فبينما هم كذلك وقد كادت قلوبهم أن تطير بأرواحهم فى أبدانهم فرحاً وسروراً ، إذ أقبلت الملائكة يقودون نجائب بخت خلقت من الياقوت ، ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب ، كأن وجوههم المصابيح نضارة وحسناً ، لا تروث ولا تبول ، ذوات أجنحة ، قد علاها خز من خز الجنة أحمر ، ومرعز من مرعزها أبيض مشرق فى بياضه ، على ظهرها خطان حمرة فى بياض على هيئة وتر النجائب فى الدنيا ، لم ينظر الخلائق إلى مثله وحسن لونه .

فتوهم حسن تلك النجائب وحسن صورها ، نجائب من ياقوت الجنة فى حمرته وصفائه وإشراق نوره وتلألؤه حين يمشى فى تحركه ، فتوهمها بحسنها وحسن وجوه الملائكة وحسن أزمّتها بسلاسل من ذهب الجنان (*) وهى تقودها وتقبل بها إلى أولياء الله وأنت فيهم معتدلة فى خببها بحسن سيرها لأنّها نجب خلقت على حسن السير من غير تعليم من العباد ، فهى نجب من غير رياضة ، ذلل بسلاسلها منقادة من غير مهنة ؛ فتوهم إقبال الملائكة بها إليهم حتى إذا دنوا من أوليائه أناخوها ، فتوهم بروكها فى حسنها وهيئة خلقها وقلبك عارف أنك ستركب بعضها إلى ربك منطلقا فى الزائرين[١] له ، فلما أناخوها فبركت على كثبان المسك من رياض الزعفران تحت طوبى ومستراح

(١) الزارين .

العابدين أقبلت الملائكة على أولياء الله فقالوا بحسن نغماتهم : ياأولياء الرحمن إن الله ربكم يقريكم السلام ويستزيركم فزوروه لينظر إليكم وتنظروا إليه ، ويكلمكم وتكلّموه ، ويحييكم وتحيبوه[١] ويزيدكم من فضله ورحمته ، إنَّه ذُو رَحمَةٍ وَاسِعَةٍ وفضـل عظيم[٢] . فلما سمعها أولياء الله وسمعتها معهم وثبوا مسارعين إلى ركوبها حبا وشوقا إلى ربهم ؛ فتوهم سرعة توثبهم وأنت معهم بحسن وجوههم ونورها وإشراقها سروراً بقرب ربهم ورؤية حبيبهم ، فتوهم هيبتهم حين رفعوا أيمان أرجلهم إلى ركب الياقوت والزمرد والدر ، فتوهم حسن أقدامهم ونعيمها ، إنّها[٣] أقدام غيرت عن خلقها فأُكسيت فى الحسن بخلاف ما كانت عليه فى دار الدنيا ، ثم أكنّها الله فى جنته من كل آفة فغير خلقتها متخضبة ، لها أحقاب الدهور فى كثبان المسك ورياض الزعفران ؛ فتوهم حسن نورها وقد رفعها أولياء الله إلى ركب الياقوت والدر ، فتوهمها بحسنها فى أحسن ركب نجائب الجنان ، ثم ثنوا من غير عنف ولا مشقّة حتى استووا على رحائل من الدر والياقوت مفضّضة بالعبقرى والأرجوان ؛ فيا حسن بياض الدر فى حمرة الأرجوان ، فلما استووا عليها واستويت على نجيبك معهم أثاروا نجائبهم فثارت ، فثار عجاج المسك لو ثوبها[٤] علا ذلك ثيابهم وجمامهم ، ثم استوت النجائب صفا واحداً معتدلاً

(١) وتحيوه . (٢) سورة ٦ ، ١٤٨ (٣) فى الهامش .
(٤) على .

فصاروا موكباً معتدلاً لاعوج فيه ، ولا يتقدم بعضها بعضاً ، فأعظم به من موكب وأعظم به من ركبان ؛ فتوهم امتداد صفّهم فى اعتداله واصطفاف وجوههم معتدلة فى اصطفافها ، وعلى جباههم الأكاليل ، من فوق رؤوسهم[١] تيجان من الدر والياقوت ، فما ظنك باجتماع وجوه أهل الجنان كلّها ، عليهم (١٦٩) الأكاليل والتيجان مصطفّة متحاذية ، فما ظنك بأكثر من ألف ألف ألف ألف ، وما تقدر القلوب على إحصاء عدده من تيجان الدر والياقوت مطنطنة على وجوههم نضرة ضاحكة فرحة مستبشرة . فلو توهمت هـذا الموكب بنجائبه واعتدال ركبانه واصطفاف تيجانه على وجوه أولياء الله المشرقة الناعمة من تحته ، ثم رهقت نفسك اشتياقا لكنت لذلك حقيقا ، ولكنت به حريا إن عقلت ذلك شوقا من قلبك بإيقان بإنجاز من موعد ربك لذلك لأوليائه ، فلما اعتدل الصف واصطفّت التيجان تبادروا بينهم : سيروا إلى ربنا .

فتوهم النجائب حين أخذت فى السير بأخفاف من الياقوت سيراً واحداً بخطّ واحد[٢] لا يتقدم بعضها بعضاً ، تهتز أجسام أولياء الله عليها من نعيمها وأكتافهم متحاذية فى سيرهم وأخفاف رواحلهم وركبها متحاذية فى خببها ، فانطلقوا كذلك تثير رواحلهم المسك بأخفافها ، وتهتز رياض الزعفران بأرجلها ، فلما دنوا من أشجار الجنة رمت الأشجار إليهم من ثمارها فصارت الثمار وهم يسيرون فى أيديهم ، فيا حسن تلك

(١) روسهم . (٢) بخطا .

الثمار فى أكفّهم ، وتزحزحت وتنحت الأشجار عن طريقهم لما ألهمها مولاها أن لا يتثلم صفّهم فيتعوج بعد استوائه ، ويختلف بعد اعتداله ، ويفرق بين ولى الله ورفيقه لأنّهم رفقاء فى الجنان لتحابهم فى الدنيا فى ربهم ، فالرفقاء مشهورون كل رفيقين قد شهرا بالمرافقة ، وجعل زيهما ولباسهما لوناً واحداً ، ولون رواحلهما [1] لوناً واحداً .

فتوهم نفسك إذ منّ عليك ربك وأنت لاصق برفيقك منكبك بمنكبه ، وقد دنوتما من أشجار الجنة فنفضت ثمرها فوقعت الثمار فى أيديكما [2] وأيدى أولياء الرحمن ، ثم تنحت بأصولها عن طريقهم فهم يسيرون فرحين ، وقد شخصت قلوبهم بالتعلّق إلى نظر حبيبهم فهم يسيرون بالسرور ويلتفت بعضهم إلى بعض يتحادثون ويضحك بعضهم إلى بعض ، يتداعبون فى سيرهم ، يحمدون ربهم على ما صدقهم على ما أباح لهم من جواره ؛ فبينا هم فى سيرهم إذ دنوا من عرش ربهم وعاينوا أحسن حجبه ونوره واستحثوا السير شوقا وحبا وفرحاً به . فتوهم نجائبهم تطير فى سيرها باعتدال موكبهم وإشراق وجوههم والملائكة قد أحدقت بالنجائب تزفهم زفا إلى ربهم حتى انتهوا إلى فحصة عرش مولاهم ، فتوهم سعة تلك الفحصة وحسن نورها ببهجتها (*) وزهرتها ، وقد وضعت الزرابى والنمارق على كثبان المسك ، عرف كل فتى [3] منهم ما أعد له ، والكراسى لأهل صفوته من عباده ، وأحبائه من خلقه ،

(١) رواحلهم . (٢) أيديكم . (٣) فتا .

لما دنوا إلى ما أعد لهم من المنابر والكراسى والزرابى والنمارق ، فثنى رجله الحسنة من الركاب إلى منبر أو كرسى أو زربة ؛ فتوهم ثنيهم أرجلهم إلى كراسيهم ، حتى استووا عليها ، فتوهم نعيم تلك الأفخاذ والأوراك المرتفعة على الكراسى بالدر والياقوت ، فأعظم به من مقعد وأعظم بولى الله متربعاً . فلما أخذ القوم مجالسهم واطمأنوا فى مقعدهم والحجب تسطع نورها فيا لذة أعينهم ، وقد أصغوا بمسامعهم منتظرين لاستماع الكلام من [1] حبيبهم ؛ فتوهمهم فى مقعدهم الصدق الذى وعدهم مولاهم ومليكهم فى القرب منه على قدر [2] منازلهم ، فهم فى القرب منه على قدر [2] مراتبهم ، فالمحبون له أقربهم إليه قرباً إذ كانوا له فى الدنيا أشد حبا ، وأقرب إلى عرشه منهم القائمون بحجته عند خلقه ، ثم الأنبياء عليهم السلام ثم الصديقون على قدر ذلك فى القرب من العزيز الرحيم ، فأعظم به من مزور ، وجلّ وتكبر من مزور .

فتوهم مجالسهم بحسن كرامتهم وجمال وجوههم [3] وإشراقها لما رهقها نور عرشه عز وجل وإشراق حجبه [4] فلو صح لك عقلك ثم توهمت مجالسهم وإشراق كراسيهم ومنابرهم وما ينتظرون من رؤية ربهم ، ثم طار روحك شوقا إليه لكنت بذلك حقيقا . فلما عظم ذلك عند عاقل عن الله ، مشتاق إلى ربه ورؤيته ، فتوهم ذلك بعقل فارغ لعل

(١) فى الهامش . (٢ — ٢) فى الهامش . (٣) وجوهم .
(٤) فى الهامش .

نفسك أن تسخى(١) بقطع كل قاطع يقطعك عنه، وترك كل سبب يشغلك عن التقرب فيه إلى ربك . فلما استوى بهم المجلس واطمأنّ بهم المقعد وضعت لهم الموائد ليكرم الله عز وجل زواره بالإطعام والتفكيه لهم، ووضعت الموائد لزوار الله عز وجل وأحبائه من خلقه، قامت الملائكة على رؤوسهم(٢) معظمين لزوار الرحمن ، فوضعت الصحاف من الذهب فيها الأطعمة وطرائف الفاكهة مما لم يحسنوا أن يتمنوا ، فقدموا أيديهم مسرورين بإكرام ربهم لهم ، لأن حقا على كل مزور أن يكرم زائره فكيف بالمزور الكريم الواحد الجواد الماجد العظيم . فتوهم وهم يأكلون فرحين مستبشرين بإكرام مولاهم لهم ، حتى إذا فرغوا من أكلهم قال الجليل لملائكته : اسقوهم ، فأتتهم الملائكة ، لا الخدّام والولدان ، بأكواب الدر وكؤوس(٣) الياقوت ، فيها الخمر والعسل والماء (١٧٠) والألبان ؛ فتوهم تلك الكأسات وتلك الأكواب بأيدى ملائكة الرحمن ، فتناولوها أولياء الله فشربوها ، فتنازع حسن الشراب فى وجوه الزوار ، فلما سقتهم الملائكة ما أمرهم الله به من الأشربة قال الجليل : اكسوا أوليائى ، فتوهم الملائكة ، وقد جاءت بالحلل التى لم يلبسوا فى الجنة مثلها ، ثم قاموا على رؤوسهم(٤) فألبسوها أهل كرامة الله ورضوانه ، فتوهم وقد صيروها(٥) من فوق رؤوسهم حتى

(١) تسخا . (٢) روسهم . (٣) وكوس . (٤) روسهم .
(٥) صيرها .

صارت على أقدامهم فأشرقت بحسنها وجوههم ، ثم أمر الجليل تبارك وتعالى أن طيبوهم ، فارتفعت السحاب بحسنها وشدة ضيائها ونورها لحمل ألوان الطيب من المسك وجميع طيب الجنان ما لم يجدوا مثل رائحته ، فتوهمها تمطر عليهم والطيب يتساقط عليهم مطراً حتى علا جباههم وثيابهم ، فلما أكلوا وشربوا وخلعت الملائكة الخلع وطيب(١) مطر السحاب ، شخصت أبصارهم وتعلقت قلوبهم ثم رفع الحجب ؛ فبينا هم فى ذلك إذ رفعت الحجب فبدا لهم ربهم بكماله ، فلما نظروا إليه وإلى ما لم يحسنوا أن يتوهموه ولا يحسنون ذلك أبداً لأنه القديم الذى لا يشبهه شىء من خلقه ، فلما نظروا إليه ناداهم حبيبهم بالترحيب منهم وقال لهم : مرحباً بعبادى ، فلما سمعوا كلام الله بجلاله وحسنه غلب على قلوبهم من الفرح والسرور ما لم يجدوا مثله فى الدنيا ولا فى الجنة ، لأنّهم يسمعون(٢) كلام من لا يشبهه شيئاً من الأشياء . فتوهمهم ، وقد أطرقوا وأصغوا بمسامعهم لاستماع كلامه ، وقد علا وجوههم نور السرور لكلام حبيبهم وقرير أعينهم ، فلو توهمت نفسك وقد سمعت قول الله لأوليائه مرحباً بهم ، ثم طار روحك فرحاً به وحبا له لكان ذلك منه حقيراً وصغيراً عندما توهمته من نفسك عند استماع كلامه ، فحياهم بالسلام فردوا عليه أنت السَّلامُ(٣) ومنك السلام ولك حق الجلال والإكرام . فرحبا بعبادى وزوارى وخيرتى من خلقى الذين رعوا عهدى

(١) طيب . (٢) يسمعوا . (٣) سورة ٥٩ ، ٢٣

وحفظوا وصيتى وخافونى فى الغيب وقاموا منى على كل حال مشفقين ، وقد رأيت الجهد منهم فى أبدانهم [١] أثرة لرضاى عنهم ، قد رأيت ما صنع بكم أهل زمانكم فلم يمنعكم جفاء الناس عن حق ، تمنوا علىّ ما شئتم . فلو رأيتهم وقد سمعوا ذلك من حبيبهم يذكرهم ما كانوا عليه فى دنياهم من رعاية عهده وحفظه (*) ودوام خوفهم منه ، وقد استطاروا فرحاً لما شكر لهم رعايتهم حقّه ، وحفظ منهم خوفهم ، ورحب بهم محبّة لهم ، إذ كانوا بذلك إياه فى الدنيا يعبدونه ؛ استطارت قلوبهم فرحاً وسروراً إذ لم يفرطوا فى طاعته ولم يقصروا فى مخافته ، فاغتبطوا لما كانوا به لله فى الدنيا يدينون من شدّة خوفهم ورعاية حقه وحفظه ، فردوا إليه [١] الجواب مع سرور قلوبهم بالقسم لعظمته وجلاله ، أنّهم قد قصروا عما كان يحق له عليهم إعظاماً له واستكثاراً ، إذ أثابهم جنته وأكرمهم بزيارته وقربه واستماع كلامه ، فقالوا عند ذلك : وعزتك وجلالك [٢] وعظمتك وارتفاع مكانك ما قدرناك حق قدرك ، ولا أدينا إليك كل حقك فأذن لنا بالسجود ، فقال لهم ربّهم : إنّى قد وضعت عنكم مؤونة العبادة وأرحت لكم أبدانكم فطالما أتعبتم الأبدان وأكنتم لى الوجوه ، فالآن أفضتم إلى كرامتى ورحمتى فتمنوا على ما شئتم — وفى بعض الحديث أنّهم إذا نظروا إليه خروا فيناديهم بكلامه تبارك [٣] وتعالى : ارفعوا رؤوسكم [٤] ، ليس هذا حين عمل ، هذا حين سرور ونظر — فتوهم بعقلك نور وجوههم وما يداخلهم من السرور والفرح حين عاينوا

(١ — ١) فى الهامش . (٢) فى الهامش . (٣) تباك . (٤) روسكم .

مليكهم ، وسمعوا كلام حبيبهم ، وأنيس قلوبهم ، وقرة أعينهم ، ورضا أفئدتهم ، وسكن أنفسهم ، فرفعوا رؤوسهم [١] من سجودهم ، فنظروا إلى من لا يشبهه شيء بأبصارهم ، فبلغوا بذلك غاية الكرامة ومنتهى [٢] الرضا والرفعة . فما ظنك بنظرهم إلى العزيز الجليل الذى لا يقع عليه الأوهام ، ولا يحيط به الأذهان ، ولا تكيفه الفكر ، ولا تحده الفطن ، الذى لا تأويه الأرحام ، ولم تنقله الأصلاب ، ولا يبدو [٣] فيكون مطبوعاً منتقلاً ؛ الأزلى القديم الذى حارت العقول عن إدراكه ، فكلّت الألسنة عن تمثيله بصفاته ، فهو المنفرد بذاته عن شبه الذوات ، المتعالى بجلاله على مساواة المخلوقين ؛ فسبحانه لا شيء يعادله ، ولا شريك يشاركه ، ولا شيء يريده فيستصعب عليه أو يعجزه إنشاؤه ، استسلم لعظمته الجبارون ، وذل لقضائه الأولون والآخرون ، نفذ فى الأشياء علمه بما كان وبما لا يكون ، وبما لو كان كيف كان يكون ، فأحاط بالأشياء علما ، وسمع أصواتها سمعا ، وأدرك أشخاصها . . . . [٤] ونفذ فيها إرادته ، وأمضى [٥] فيها مشيئته ، فهى مدبرة . . . . [٦] وقربها اختراعا فكانت عن إرادته ، لم يتقدم (١٧١) منها شيء قبل وقته الذى أراد فيه كونه ، ولم [٧] يتأخر فيه عن نهيه ، وكيف يستصعب عليه من لم يكن شيئاً مذكوراً حتى كونه سبحانه الواحد القهار .

فلما سرّ أولياء الله برؤيته وأكرمهم بقربه ونعّم قلوبهم بمناجاته ،

(١) روسهم . (٢) ومنتها . (٣) يبدوا . (٤) بياض فى الأصل .
(٥) وامضا . (٦) بياض فى الأصل . (٧) لم .

واستماع كلامه ، أذن لهم بالانصراف إلى ما أعد لهم من كرامته ونعيمهم ولذاتهم ، فانصرفوا على خيل الدرّ والياقوت على الأسرّة فوقها الحجال ترف وتطير فى رياض الجنان . فما ظنك بوجوه نظرت إلى الله عز وجل وسمعت كلامه كيف ضاعف حسنها وجمالها ، وزاد ذلك فى إشراقها ونورها ، فلم تزل فى مسيرها حتى أشرفت على قصورها ، فلما بدت لخدامها وقهارمتها وولدانها بادر كل واحد منهم خدامه وقهارمته وولدانه مستقبلة من أبواب قصوره حتى أحدقوا به يزفونه إلى قصوره وخيامه ، فلما دنا من باب قصره(١) وخيامه قامت الحجاب رافعى ستور أبواب قصره معظمين مجلين له وبادرت إليه أزواجه ، فلما نظرت زوجته إلى جمال وجهه قد ضوعف فى حسنه وإشراقه ونوره ، ازدادت له حبا وعشقا ، وأشرقت قصوره وقبابه وخيامه وأزواجه من نور وجهه وجماله ، وازدادت أزواجه حسنا وجمالاً ووجاهة وحشمة ؛ ثم نزلوا عن خيولهم إلى صحون قصورهم ، ثم اطمأنوا على فرشهم وعادوا إلى نعيمهم واشتاقوا إلى منادمة إخوانهم فركبوا النجائب والخيل عليها يتزاورون ، حتى التقوا على أنهار الجنة(٢) ففرشت لهم نمارق الجنان(٢) وزرابيها على كثبان المسك والكافور ، وتقابل الإخوان على السرور والشراب ، فقامت الولدان بالكأسات والأباريق والأكواب يغترفون من أنهار الجنة ، أنهارهم الخمر والسلسبيل والتسنيم ؛ فلما أخذت الولدان الكأسات واغترفوا ليسقوا أولياء الرحمن ، لم يشعروا إلا بنداء الله عزّ وجلّ :

(١) فى الهامش .   (٢ — ٢) فى الهامش .

يا أوليائى طالما رأيتكم فى الدنيا وقد ذبلت شفاهكم ويبست حلوقكم من العطش ، فتعاطوا اليوم الكأس فيما بينكم وعودوا فى نعيمكم فكلوا واشربوا هنيئا مريئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية . فلا يقدر الخلائق أن(١) يصفوا سرور قلوبهم حين سمعوا كلام مولاهم يذكر أعمالهم شكرا منه لهم ، وغبطة منه لهم ، لمّا ناداهم إلى(٢) معاطاة الكأس للمنادمة بينهم بعد معرفتهم فى الدنيا . . . . .(٣) منادمة أهل الدنيا على خمورهم . فلو رأيت وجوههم(٤) وقد أشرقت بسرور كلام مولاهم واغتباطه لمّا ذكرهم أعمالهم الصالحة من صيامهم ، وتركهم منادمة أهل الدنيا لمرضاته ، وما عوّضهم من المنادمة فى جواره ، وما أيقنوا به من سرورهم بمنادمتهم على الخمر والعسل والألبان ، فأعظم به من مجالس وأعظم به من جمع ، وأعظم به من منادمين فى جوار الرحمن الرحيم . فكن إلى ربك مشتاقا وإليه متحبباً ، ولما حال بينك وبينه قاطعا وعنه معرضا ، وابتهل فى الطلب إلى الله بفضله وإحسانه ، وأن لا يقطع بك عنهم . وبالله التوفيق وإليه المصير ، والجنة مثوى المؤمنين وثواب المتقين وسرور المحزونين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تم كتاب التوهم بحمد الله وصلى الله على محمد النبى وعلى
آله أجمعين اللهم وفق لمن كتبه و . . . .

(١) ناقص فى الأصل .   (٢) من .   (٣) بياض فى الأصل .
(٤) وجوهم .

now published for the first time, is preserved in the splendid Oxford codex Hunt 611, which also contains an excellent copy of *al-Ri'aya*. This manuscript is generally extremely accurate, and is quite complete, though damage from insects has rendered illegible a few phrases towards the end of the treatise. This manuscript was written in the year 539/1144-5.[1]

It is probably not too much to say that the work here published is the most important, certainly the most interesting, authority for the study of Muslim eschatology hitherto forthcoming.[2] As it is hoped in a subsequent pamphlet to consider its position in the history of Muslim doctrine on that subject, it will perhaps be sufficient here to draw attention to the use made of it by Ghazali in the last section of his *Ihya*.[3] Many phrases of the latter are either definitely borrowed from or modelled upon Muhasibi's book, while in scope and structure the whole section is profoundly indebted to it.

The *Kitab al-Tawahhum* belongs to the literary genre known as *wa'z*. It seeks, by presenting a truly terrifying picture of the torments of death and Hell, and an equally alluring representation of the delights of Paradise, to persuade the reader (or hearer) to abandon the life of sin and to devote himself to the service of God. Ghazali thought fit to crown his great masterpiece on Sufi theology and ethics with such a discourse : and it is just to observe that his *wa'z* is considerably inferior, in style and intensity, to that of his predecessor. It would be difficult to find any parallel equal in dignity and beauty of language to Muhasibi's description of the journey of the blessed soul to the Presence of

(1) Massignon, op. cit. p. p. 213.
(2) For an account of the literature of the subject, see D. B. Macdonald's article *Kiyama* in *Encyclopaedia of Islam*, vol. II pp. 1048-1051.
(3) Cairo edition 1282, vol. IV pp. 440-466.

God. If it be objected on any hand that the *Kitab al-Tawahhum* abounds in images of too sensuous or even sensual a nature, such a criticism can only arise from a failure to appreciate that the whole content of the work is but a prelude to that scene. This is the pronouncement of a great mystic on the subject of the Beatific Vision of God in the world to come.

These brief words of introduction would be incomplete without a sincere expression of gratitude to the members of the *Lajnat al-ta'lif wa'l-tarjama wa'l-nashr*, who have most graciously consented to publish this text at the expense of their association. In particular it is my wish to record my appreciation of the kind offices of my friend and former colleague, Professor Ahmad Amin, who has greatly obliged me by contributing a foreword to this edition, and by making valuable suggestions for improving the text.

A. J. A.

India Office, London.



PREFACE

The somewhat voluminous writings of the celebrated third century mystic Harith b. Asad al-Muhasibi have only become known to scholarship within comparatively recent years, mainly through the industry of the great French orientalist Professor L. Massignon, who in his *Essai sur les Origines du Lexique Technique de la Mystique Musulmane* (Paris 1922, pp. 211-225) has given a succinct account of the general features of Muhasibi's doctrines, together with a list of his extant works.[1] Following in Professor Massignon's footsteps, Dr. Margaret Smith in her recent monograph *An Early Mystic of Baghdad* (London 1935, pp. 44-59) gives an analytical account of these works, and in particular announces her intention (p. vii) of producing a critical edition of Muhasibi's greatest book, *al-Ri'aya li-huquq Allah.*

In spite of the extraordinary importance of Muhasibi in the history of Sufism, only two small tracts by him have hitherto been published: *Kitab al-Sabr,* from the Bankipore manuscript, by Professor O. Spies,[2] and *Bad' man anaba,* by Dr H. Ritter.[3]

Muhasibi wrote two works on the subject of death and the resurrection, and each has survived in but a solitary manuscript. The *Kitab al-Ba'th wa'l-nushur* is a slight work, occupying no more than seven folios,[4] but is nevertheless important as being a source of Ghazali's *al-Durrat al-fakhira.*[5] The *Kitab al-Tawahhum,*

(1) See also *Encyclopaedia of Islam,* vol. III p. 699.
(2) *Islamica,* Bd. 6 (1934) pp. 283-289.
(3) Published at Gluckstadt, 1935, on the occasion of the Congress of Orientalists held at Rome in that year. Brockelmann (*G. A. L. Supplement* p. 352) incorrectly states that Ritter published *R. Ma'iyat al-'aql wa-ma'nah.* (Corrected p. 954).
(4) Paris 1913, foll. 196-202.
(5) Ed. Gautier, Paris, 1878. See Smith *op. cit.* p. 270.

KITAB AL-TAWAHHUM

by

Harith ibn Asad al-Muhasibi

edited from the unique Oxford MS (Hunt 611)

by

Arthur J. Arberry, Litt. D.

CAIRO
Association of Authorship, Translation
& Publication Press.

1937